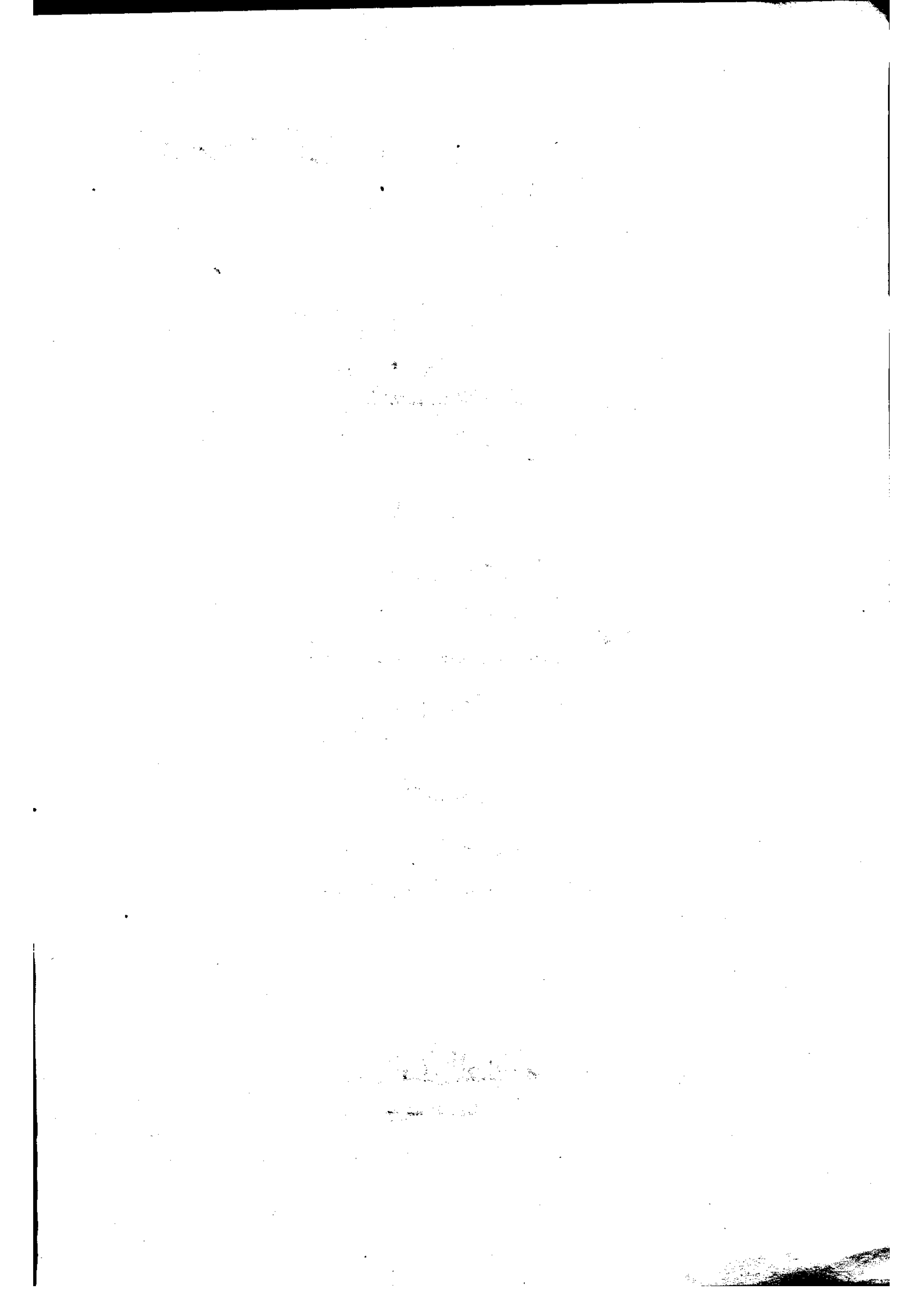
طه وادى

عمار يا مصر

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه



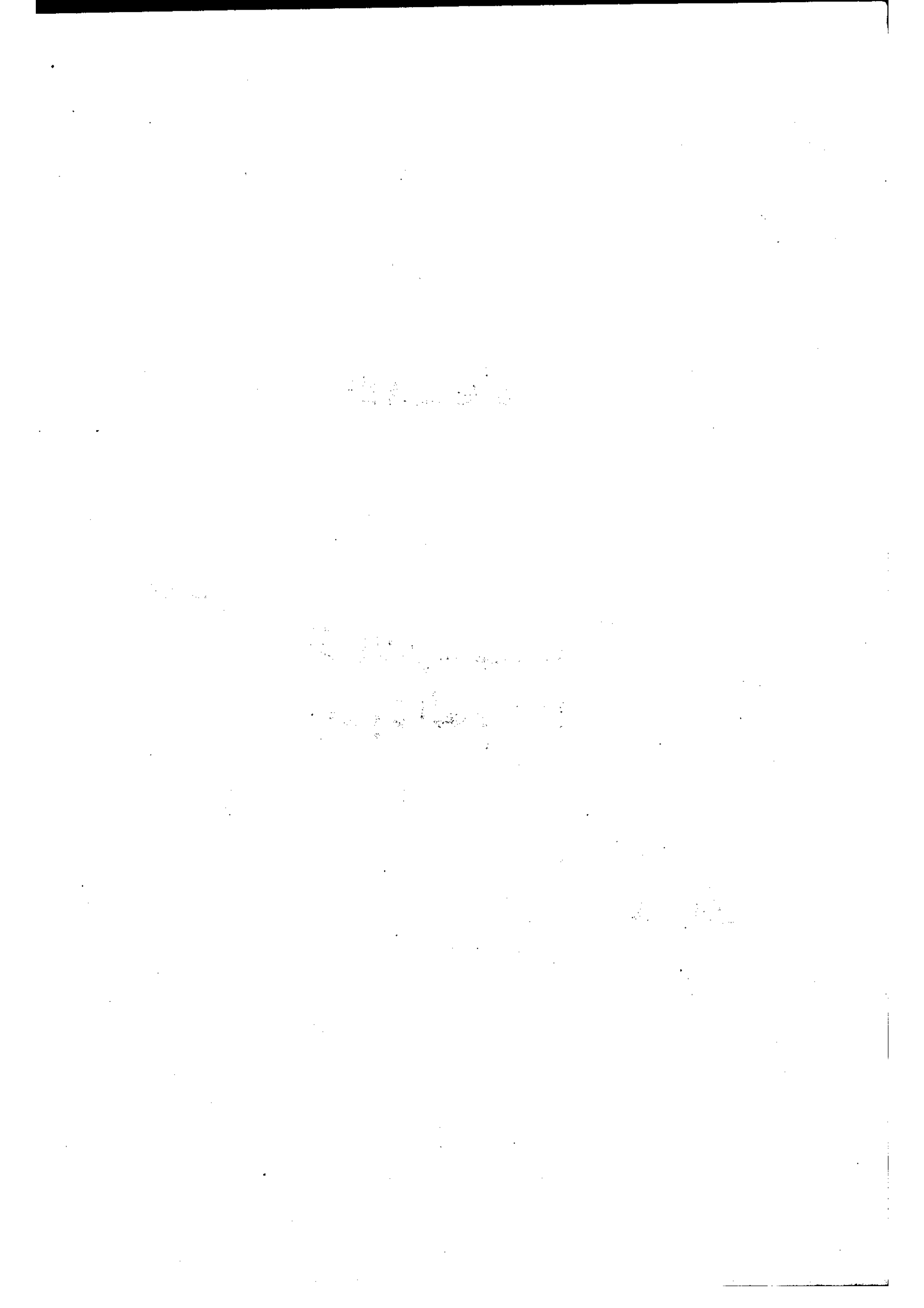
الإهــداء

إلى مصــر

أمّ الدنيــــــا

ومنارة العالم ..!!

طـه وادى



عمار يا مصر ..!!



خرج من حجرة مكتبه صامتا رهيف الحركة ، يلفه دخان سيجارته ، كأنه فراشة تسبح فى الوهج .دخل إلى حجرة نوم بدت رشيقة فى تواضع بالغ .. فما زال كل شيء فيها على حاله منذ تزوج من خمس عشرة سنة . كانت ابنته الكبرى ترتب له إحدى حقائب السفر ، وقد ظهرت فى صمتها الحزين عجوزا فى الأربعين ، بينما لم تكد تتجاوز أربعة عشر ربيعا .

ــ لم تأت أمك .. يا ألطاف ؟

ــ أنت تعرف أزمة المواصلات يا أبى ..!

هكذا أجابت دون أن ترفع وجهها عن الحقيبة .

ــ وحامد أخوك ؟

ــ أرسلته يشترى بيضا وجبنا من الجمعية التعاونية .. وخبزا من الكشك ، وربما وقف فى طابور حتى يأتى دوره .

أحس محمود أن الشقة تضيق عليه بغرفها الأربعة وأثاثها الذى ملَّ رؤيته .وهو صغير كان يذهب لاصطياد السمك مع أصدقائه من ترعة القرية ويعود دوما بلا شيء . كانت الأم تقول له ــ فى حزن صبور ــ وهى لا تتوقف عن الحركة : أنت طيب يا بنى ، ولكن رزقك ضيق ، لا تحزن فأنت مسعد .. أسنانك مفلجة ، وهذه تدل على أنك محظوظ ، لكن .. متى يطرق الحظ بابك يا محمود .؟ الله وحده هو الذى يعلم يا بنى ..!!

طرق ابنه الصغير مصطفى جرس الباب بشدة مزعجة . دخل كا القط بعد أن فتحت له أخته . أرادت أن تلومه غير أن الوالد كان قريبا ، فآثرت الصمت .

ــ إزيك يا بابا .

تبادلا قبلة ، ثم دخل وألقى حقيبته الممتلئة فى لا مبالاة . تخلص من مريلة المدرسة المتسخة وضع نفسه فى البيجاما .

ــ ألطاف .. أريد أن آكل .. أنا جوعان .

ــ اليوم سنتغدى سويا مع بابا ، إنه مسافر اليوم يا حبيبى .

ــ بابا مسافر .. أنا لست مسافرا .

كان الطفل يقاسى من جوع لا يقدر على إخفائه ، والأخت تحاول أن تفهمه الأمر بكل ما تقدر عليه من هدوء . ولكن ثورة الأطفال لا تقبل التفاهم .

الدخان يتصاعد من سيجارته الكيلوباترا موجة بعد موجة . كان يجلس فى حجرة الصالون انتظارا لموعد تجمع الأسرة . تبادل النظر مع صورته الضخمة المعلقة على الحائط ، بدت مائلة قليلا إلى الشمال ، أحس أن الصورة تغمزُ له بإحدى عينيها ، ثم تخرج له لسانها .ثمة لوحة من الكانافاة ، كانت زوجته قد شغلتها أثناء الخطوبة ، وبقيت فى الصالون رمزًا للعهد القديم والوفاء الدائم . فى اللوحة صورة عاشقين يجلسان جلسة شاعرية ، خلفهما بحيرة وشجرة ، حيث السماء بعيدة والشمس لا يكاد يظهر لها أثر . هناك لوحة أخرى أهدتها له أمه يوم أنجب ولده الأول حامد،كتب عليها « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » . كم

حيرته حكمة تلك الفلاحة الصلبة ـــ أمه ، فقد بدت حزينة يوم ولدت ابنته الكبرى ألطاف ، ثم قالت لإحدى الجارات قاصدة أن تسمعها « موت البنت هنا ، وان كان فرحها على القنا » .. أما يوم أنجبت زوجته ابنا فقد طارت من الفرحة ، وقبلتها قائلة : حمدا لله على سلامتك يا ابنتى .. الولد وتد .!

جلست أمام أبيها فى صمت . تبادلا نظرات شوق مكبوت . كانت ألطاف تحاول ألا تلتقى عيناها بعينيه ، هناك نهر من الدموع ، يريد أن ينهمر ، بيد أنها تمارس صبرًا شديدا ، حتى لا تبدى حزنها . كانت ابنته البكر تمثل رمزًا متجسدا لضميره . كان يرى فى مشاعرها ترمومتر الصواب والخطأ فى ما يقدم عليه . أومأ لها وهو يحاول الابتسام بمشقة ، فجاءت وجلست على يساره ، طوقها بيديه وقبل جبهتها وخدها :

ـــ ليست هذه أول مرة أسافر فيها ، فلم الحزن يا طوفة ؟.

ـــ قلبى يحدثنى أن السفر هذه المرة لن يكون عاديا .. ستطول غيبتك يا أبى .

ـــ البركة فى أمك .. سوف ترعاكم خيرًا منّى .

ـــ هى أم عظيمة بلا شك ولكن .. هل يغنى الماء عن الهواء يا أبى .؟

حيرته حكمتها .. كاد يرتبك .!!

ـــ الحياة كفاح يا ابنتى .. وما أفعله لأجلكم جميعا . ضاق الرزق .. وساءت الأحوال ، و لم أعد قادراً على أن أوفر لكم حياة كريمة .

ـــ المال ليس كل شيء يا أبى .

ـــ ألطاف يا ابنتى يا حبيبتى .. هناك أشياء صعبة فى الحياة ، لم تتسع مداركك لها بعد .

ـــ ليس هناك أصعب من غياب الأحباب .. ثم من لنا فى هذه الحياة الصعبة بعدك يا أبى .؟

جرتْ دموعُ العينين على الخدين الشاحبين . آثر الصمت مسلما بفشله فى الدفاع عن نفسه . كان الضوء شاحبا ، بدت فوق مفتاح النور نملة تحاول الصعود إلى سقف الغرفة . تابع حركتها .. تسير فى خط متعرج ، وهى عنيدة تحاول مواصلة السير . شد أذنيه صوت فيروز يأتى من مذياع قريب :

خايف اقول اللّى فى قلبى　　　تتقلْ وتعنْد ويَّاى
ولو داريتْ عنّك حبى　　　تفضحْنى عينى فى هَواى

اجتمعت الأسرة حول مائدة الغداء ، الأب كان محور الارتكاز . نظرت إليه زوجته سامية وهى جالسة فى صدر المائدة .. كانت تتأمله فى لهفة حانية ، تحاول أن تدس فى فمه بين لحظة وأخرى بعض قطع اللحم من طبقها .. ذكرته بأيام الحب والشباب .. أوه .. ألا ليت الشبابَ يعودُ يوما . كانت ترى رحلته إلى الشرق .. إلى بلاد البترول بداية خير ومرحلة هامة فى تاريخ الأسرة . المال أهم شىء نقيس به أقدار البشر فى هذا الزمن النكد . سافرْ فى أمان الله يا محمود .. وارجعْ .. بالسلامة .. والعربة المرسيدس .. والملابس الفاخرة .. ولا تنس هدايا الأهل والجيران . كم بدا لها عجوزا قد شاب قبل الأوان .. لكن قريبا سوف تنصلح الأحوال .!!

ــ خلِّ بالك من صحتك فى الغربة يا محمود .

ــ حاضر ..

ــ والخطابات .. مثل ما كنتَ تفعل أيام الخطوبة .. كل أسبوع خطاب .

قال مصطفى وهو لا يحوّل نظره عن طعامه :

ــ بابا .. المدرسة اليوم قالت أنت ضعيف فى اللغة العربية .. قل لبابا .. لازم تأخذ درسا .

ــ حاضر ..

ــ لا .. لن آخذ أى درس .

ــ المدرسة الآن يلعب فيها المدرسون والتلاميذ .. والبيت للدراسة والتعليم . هكذا قالت الأم .

حاول محمود الانشغال بطعامه و لم يعلّق . حامد الولد الكبير فى السنة الأولى الإعدادية . كان يرى مثله الأعلى فى أمه وليس فى أبيه . نظر إلى الوالد ، تصور شجرة عالية : لها ساق النخلة ، وفروع الصفصاف ، وثمر المانجو . كما النخلة فى الصحراء سوف تنغرس جذورك بعيدا .. بعيدا أيها الوالد الحبيب .. ستقاسى الحرّ والوحدة .. وستشرب المرَّ والعرق المالح .. لكن المانجو ثمر حلو لذيذ . انتهى اللحم من طبقه وأراد أن يخطف قطعة من طبق أخته ، التى لم تكد تذوق أى شىء من طعامها ، فهمتْ ألطاف نظرته بسرعة ، فاستبدلت الأطباق فى صمت ، لمح الأبُ المنظرَ و لم يعلق ، فأرادت أن تكسر مرارة الصمت .

ــ ستكون هذه أول سنة يا بابا نحتفل فيها بعيد ميلادكِ الخامس

والأربعين .. ولست معنا .

ـــ سأكون معكم يومها .. وكل يوم .. بعقلى وقلبى وروحى .. ليس صحيحا ما يقال : البعيد عن العين بعيد عن القلب .. أليس كذلك يا سامية .؟!

ـــ بلا شك يا حبيبى .

هكذا ردت الزوجة الطيبة .

ـــ ولكن ...

قالتها ألطاف بسرعة و لم تكمل .. تبادلت مع الأم والأب نظرات صامتة . أحست الفتاة بأنها قادمة على تجربة جديدة فى حياتها لا تعرف لها طعما . كان الوالد عالمها عند الفرح والحزن .. فى الليل والنهار . كانت تظل يقظة كل مساء حتى يأتى ـــ فى حنان ـــ ويقبلها قبلة النوم هى وأخواتها ، ثم ينسل إلى حجرته بعد أن يتأكد من إغلاق النوافذ ووجود الغطاء . صدرها يعلو ويهبط وعيونها شاردة . بدت مثل ظبى مُطارد .. يريد أن يصرخ .. يستغيث .. ولكن متى كانت دموع الأبناء تحد من حركة الآباء .؟! تمنت أن تركع أمامه .. أن تقول له : لا .. لا يا بابا . تخيلت حمامة طائرة ، تحلق فى فضاء سرمدى فوق صحراء قاحلة . تعبتْ ـــ وما كبرتْ ـــ واشتاقتْ إلى غصن صفصاف ، تستظل به وتستريح عليه . !!

* * *

تجمع الأصدقاء .. زملاء الدراسة والعمل والحياة .. اختلف طريق كل منهم بعد التخرج ، لكن ظل هناك رباط مقدس يجمعهم فى المناسبات الحزينة والسعيدة .فى شقة عبد الحكيم صديقهم الأعزب

الأرمل — كما يطلقون عليه — كان اللقاء . بدت الشقة فقيرة الأثاث .. الحجرة بها كنبة صالون ومجموعة مختلفة الأشكال من الكراسى الفوتى والخشب والخيزران .. ومنضدة أثرية تستخدم مكتبا .. ومائدة .. وأحيانا سرير نوم .. فوقها زجاجة ويسكى كبيرة « جونى ووكر » ، ومزة مختلفة من الجبن واللحم البارد والزيتون ، وإناء به قطع ثلج وبعض زجاجات كوكاكولا .. وسجائر مختلفة .. كليوباترا .. روثمان .. مارلبورو .

كان بدء الشرب إعلانا باكتمال الشلة . قال عبد الله وهو يحتسى كأسه الأولى فى رشفة واحدة .

— الخمر مثل المرأة تنسى الإنسان متاعب الحياة .. لكنها تخلف صداعا طويلا .!!

— أنت فى الشرب واللذة زنديق ، ومع ذلك تصر على أنك سلفىٌّ الفكر .

هكذا قالت ليلى فى سرعة وحدة وهى تثبِّتُ نظارتها .

— ساعة لربك وساعة لبطنك — كان هذا الرد رد عبد الحكيم — ثم هذه نقرة .. وتلك نقرة .

ردت ليلى :

— متى تتركون هذه التناقضات أيها البرجوازيون المتعفنون .

قال محمود فى هدوء :

— هذه ليلة وداع .. وليست ليلة تسوية الحساب .

ضحك عبد الله فى سخرية :

— بدأ السيد محمود يتكلم بلغة الحساب .

قال إبراهيم أبو سنة — مفتي الشلة وصاحب الصوت العالى فيهم :
— يا سادة .. القضية الحقيقية هي ..
نظر الجميع إليه فى ترقّب ، بينما قالت ليلى ضاحكة :
— فتح الفلاح الفصيح إرساله ، وعليكم بالسكوت وإلا تكون ليلتكم سوداء .
تبادلتْ بسمةَ تحية مع سامية زوجة محمود ، التى لم تكن تشارك فى الحديث .
— أنتم الآن فى العقد الخامس .. هلا سأل أحدكم نفسه سؤالا بسيطا .. ماذا أعطى لمصر حتى الآن .؟!
هكذا قال إبراهيم .. أما محمود فقد عاوده صداع خفيف ، وتراءتْ له حياته كلمح البرق .. فى صباه كان مؤمنا بمبادئ الإخوان المسلمين بحكم تربيته الدينية . وفى سنة ١٩٥٠ كان زعيما للطلبة الوفديين ، وانتهى به الحال إلى أن يكون أحد مفكرى اليسار الجديد فى مصر سنة ١٩٥٤ . كان يرى فى الثورة طريقا للخلاص والحرية والرخاء . مع بداية الستينيات تخلص — غير آسف — من كل ما يربطه بأى فريق سياسى . لكن الانشغال بالسياسة همٌّ إذا تعرض له الإنسان لا يقدر على التخلص منه .. كيف يمضى هارب من قدره ؟ ظل يحلم بمصر حلما رومانسيا .. كان يتمنى — ولا يزال — أن تصبح مصر درة الشرق وأن تقود شقيقاتها العربية إلى طريق الحرية والوحدة .. لكن السبيل كيف ..؟ لا يدرى ولا يستطيع وضع النقط على الحروف .!!
تدخلت سامية فى الحديث لأول مرة :

— أستاذ إبراهيم ليست السياسة إحدى اهتماماتى .. لكنى غير قادرة على فهم ما تريد .

ردَّ عبد الله وهو يضع كأسه بعصبية على المائدة :

— الطريق الوحيد لصلاح الأحوال هو العودة إلى التراث .. إلى الدين . ضاع الدين من حياتنا فضاع كل شيء ، وسوف نرى أياما أسود من قرون الخروب ، لأننا قد ضللنا الطريق إلى الله .

أخرج إبراهيم علبة سجائره فى حرص شديد من جيبه . تناول سيجارة فى صمت ، كأنما يحاول ألا يراه أحد ، فيقدم له واحدة ، إنه شديد الحرص وإن كان غير بخيل ، وهو كثير الكلام بقدر ما هو قليل الحركة . أشعل السيجارة وأخذ نفسا عميقا :

— يا مدام سامية وحِّدى الله .

ابتسمت ليلى فى رقة :

— قل أيها البرجوازى الاشتراكى المؤمن (وكانت تعد صفاته على أصابع يدها) .. شيء ما فيك يذكرنى بجدتى .

— يبدو أن النساء فى عائلتكم رجال .. والرجال ..

ساد ضحك هادئ .

— لقد حكم مصر أيها الإخوة .. الولاة والسلاطين ، لكنه لم ينصلح حالها . وحكمها الملوك والبرجوازيون .. لكن الحال لم يتغير أيضا . الأمل الحقيقى فى التغيير هو أن يحكم هذا البلد واحد من قلب الشعب .. تربّى فى شوارعه وحواريه .. وشرب من مائه وطينه .. وعرف ماضيه وحاضره .

ـ ما زلتَ مثاليا فى تفكيرك يا أخ إبراهيم ـ واصل عبد الحكيم الحديث ـ ليس المهم هو أن يتغير الحاكم .. المهم هو أن يتغير المواطن .. الواحد هو بداية المليون .. نريد أن نربى الشعبَ على الحرية .. على أن يمارس كل فرد حياة ديمقراطية .. فى البيت .. والمدرسة .. والعمل .. أن تتعدد وجهات النظر فى كل موقف ومشكلة . يجب أن يمارس كل مواطن حقه فى الفهم والنقد .. باختصار أن يأخذ الفرد زمام المبادرة .. أن يحس إحساسا حقيقيا بالحرية ، وأنه يشارك فى اتخاذ القرار .. أى قرار .

ـ هذه هى الشورى التى دعا إليها الإسلام .

ـ لتكن يا أخ عبد الله هذه هى الحرية كما تتصورها فى الإسلام . ولكن اسمحْ لى بأن أقول لك إن الإسلام عقيدة ، أما السياسة ونظم الحياة السياسية والاجتماعية فقد أصبحت علوما تدرس ، لها كليات وأقسام علمية مستقلة . لا أمل فى أى تغيير إلا بالعلم .

أحسَّ أن البساط يُسحب من تحتِ قدميه . ماتت الكلماتُ على شفتيه ، هكذا هُمْ دائما . لقد مل الحديث والكلام . متى يكون الفعل والحركة ؟ كاد يصيح من داخله : « أيها المثقفون أنتم رجال مع إيقاف التنفيذ .. ثرثارون بلا رؤية .. محاربون بلا سيف .. لو أنه بدلاً من كل واحد منكم حصوة رمل ، لتكون جبلٌ عالٍ ، يسد الطريق أمام قوى العدوان والظلم » .!!

ـ صيغةُ التحالف التى جاءت بها الثورة ـ هكذا مضى يتحدث عبد الحميد ، وهو مهندس شاب فى الثلاثين من عمره ـ صحيحة مائة فى المائة ، ولكن المشكلة الأزلية فى التطبيق .. كثير من الذين عملوا مع

الثورة ، كانوا ذوات متضخمة عفنة ، حققوا لأنفسهم مكاسبَ فردية بقدر ما أساءوا إلى الثورة ومصلحة البلاد .

— لم تكن ثورة بقدر ما كانت انقلابا عسكريا — واصلت ليلى فى حدة — الثورة علم وتخطيط .. تكتيك واستراتيجية .. لو كانتْ ثورة حقيقية لما أصبحنا فيما نحن فيه .

— هذه مراهقة فكرية .. ورؤية غير واضحة .. ألم تقرئى الميثاق يا مدام ليلى .؟

— هكذا أنت دائما أيها الناصرى المتعصب ، إما أن نوافقك ، وإما أن تشتم من يختلف معك .!

هل يمكن أن تموت روح الثورة فى ثورى قديم ؟ أحس أن ماضيه السياسى قد تنصل منه . كم تحمس للعمل السياسى وكتب فى الجريدة مقالات عاصفة ، كان مقاله الأسبوعى يحدث نقاشا وحوارا خصبا . ناداه ذات يوم رئيس التحرير وقال له :

— أستاذ محمود ، الصحفى العظيم مثلك ، يجب ألا يوقف قلمه فى موضوع واحد ، ما رأيك لو بدأت تكتب خواطر عامة فى الصفحة الأخيرة — صفحة اليوميات ؟

— لن أكف عن الكلام فى السياسة .. من يكتب للجماهير ويوضح الرؤية أمامهم .. ويفتح طاقات المستقبل .؟!

— ولكن ..

— ماذا .؟

— هذه أوامر عليا .

ـــ نعم .؟

ـــ كتاباتك يعلو فيها حس النقد والتجريح ، لـذلك وشى بك البعض ، وقالوا إنك محرض .

ـــ محرض على ماذا .؟

ـــ ليس المهم أن أفهمك .. المهم أن تفهم أنت ما أقول .

ـــ أنا صحفى محترف وسياسى قديم .. ودارس حقوق وعضو فى لجنة الدعوة والفكر .

ـــ مفهوم .. ولكن هل تفهمنى .؟!

عاد إلى الشلة صامتا وهو يحاول ملء كأسه ، فى مجلس الشرب كان يعز عليه أن يرى الكأس ممتلئة أو فارغة . الكأس به بعض الخمر ، وقليل من الصودا وقطعة ثلج ولا يحلو إلا مع سيجارة ومزة متنوعة . هكذا رأى أن فى حديث كل منهم شيئا صالحا .. ولكن ما هو بالتحديد .؟!

قال عبد الحكيم : نحن مدمنو سياسة .. ولكنا مليئون بالعُقد والكبت ، ولم نتدرب بعد على الحوار الراقى والجدل المسئول .

ـــ ضاع العمر وما زلنا معقّدين يا عبد الحكيم ..!

نطق إبراهيم بهذه الجملة فى حدّة .

ـــ تتحدثون كثيرا .. ولا تقولون شيئا محددا .

هكذا قالت سامية فى وداعة .

ـــ أحيانا أظن أنه قد شاخت أفكارنا .. ولكن عندى أمل .. فى الجيل الجديد .. فمصر لم تعقم أبدا .

كانت هذه هى الجملة الوحيدة التى نطق بها محمود .

قال عبد الله وقد استخفه الطرب :

ـــ أخيرا نطق أبو الهول .. فى صحة الأستاذ محمود .

أضافت ليلى :

ـــ وفى صحة مدام سامية أيضا أيها المتزمت .

ـــ تأخرنا على الأولاد يا محمود .

كانت هذه الجملة نهاية لمسرحية ساخرة تبحث عن مؤلف وعن مخرج بل وعن ممثلين .

قالت ليلى فى ذكاء خبيث :

ـــ تبدأون دائما ثوارا ومناضلين فى أول الليل .. وتنتهون أصحاب بيوت ترعون شئون الأطفال .

نظرت إليها سامية نظرة ذات معنى ، لم تقو على تبادلها معها.

فى أسطورة قديمة مترجمة عن اللغة الديموطيقية ، يحكى أن الثعلب قال للأسد :

ماذا يدفعك إلى الغرور والزهو .؟!

رد الأسد ببساطة : لأنى أسد .!

فرد عليه الثعلب هادئا : أنا أفضل منك . قال الأسد مستنكرا وهو يهز لبدته ويجرح الصخر بمخالبه : وكيف كان ذلك .؟ فأجابه فى هدوء : أنا دائما ثعلب ، لا أتخلى عن مكرى فى أى ظرف أو فى أى وضع .. أما أنت فتفقد قوّتك إذا فقدت حريتك . إن

الأسد القوى سيتحول إلى أرنب وديع إذا دخل القفص .!!

وهنا قال بيدبا الفيلسوف لـدبشليم الملك : لا تستنكر قول الثعلب يا مولاى ، فسوف يأتى زمان تصبح فيه الخرافة حقيقة ، والحقيقة خرافة .!!

خرجوا من بيت عبد الحكيم الذى يقع فى أحد الشوارع التى تصب فى ميدان الجيزة . كاد عبد الله يقع من فرط ثمله فى حفرة ممتلئة بمياه المجارى ، لولا أن شده إبراهيم قائلا فى مرح عابث :

ـ أرأيتَ كيف ينقذ اليسارُ اليمينَ فى لحظات الخطر .؟

ـ أعوذ بالله .. القاهرة قد شاخت ، أصبحت تبولُ على نفسها وربما على من فيها ، وهذه البرك شاهد على ما أقول .. لم تعد هذه البلدة قادرة على تحمل من فيها وما فيها .

وقفوا جميعا فى انتظار تاكسى . كان ميدان الجيزة نائما .. لا حس ولا حركة . هذا الميدان الذى يعج بالحركة والناس صار ساكتا ، كأنما يستريح من سفر طويل . بدا شارع الجامعة موحشا . هذا الشارع الخالد كَم َله من ذكريات حلوة ومرة ، وهذه الجامعة كانوا طائفيها صباحا ومساء .. فكيف أصبحوا اليوم غرباء .. غرباء .؟!

فى المطار كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل . الصالة محتشدة بحركة الوداع والاستقبال . ما أصعب لحظة الفراق والوداع .. أنّى يلتقى الأحباب ومتى يتجمع الشمل ، وما تعلم نفس ماذ يخفى لها القدر .؟! ترى الناس سكارى وما هم بسكارى لكن عذاب الفراق شديد .

السفر غياب .. والغياب صمت .. والصمت موت — ولو إلى حين .
وقف تائها زائغ البصر بين الحقائب والمودعين ، وقد لبس أثقل ملابسه حتى لا يثقل حمولة الحقائب . قبل زوجته سامية وقال لها فى نبرات متقطعة :

— سوف أشتاق إليكِ كثيرا .. ستوحشيننى . لا أوصيك بنفسك ولا بالأولاد . أنتِ الآن الأم والأب فكونى على قدر المسئولية .!!

— مع السلامة يا محمود .. حاول أن تحضر فى كل إجازة ، الأولاد كبروا ، وهم دائما فى حاجة إليك . خلِّ بالك من نفسك .. حافظ على نفسك من أجلنا .

أما ألطاف فى عودها النحيل ورقتها الحزينة ، فقد بدت مثل « إيزيس » رمزا للحزن والوفاء فى آن واحد . قال حتى يكسر مرارة صمتها :

— ماذا تريدين يا طوفة حتى أحضره لك .

— أريدك أنت .. أنت فقط لا غير يا بابا ..!

وضع يده على كتف ألطاف وجذب حامد باليد الأخرى وقبله قائلا :

— حامد .. لا أقول إلا شيئا واحدا .

— ما هو يا بابا ؟

— كنْ رجلا .

كانت فى نظرات الصبى الحزينة سماتُ تحد ، كأنما أراد أن يقول سأكون رجلا .. ولكن رجلا من طراز آخر ، غير الذى أنت عليه

يا أبى ، رغم حبّى لك وإعجابى بك .

صافح عبد الله بحرارة قائلا :

— لقد كبرنا يا عبد الله .. اهتم بعملك وكن بارا بأسرتك .. وحافظ على صحتك ولا تفرط فى التدخين .

قال لعبد الحكيم وهو يتأمل عوده الطويل النحيل وشعيرات بيض اشتعلت فى فوديه :

— أتمنى أن أراك بخير .. وأرجو أن تراجع كل حساباتك مع الماضى من أجل المستقبل .

فصل بينهم سورٌ له باب ، من خارجه المودعون ، ومن داخله المسافرون ليلا . مرت الإجراءات ثقيلة مرهقة ، من باب إلى شباك .. ومن مكتب إلى ميزان . رغم الانشغال كانت تبدر منه التفاتة سريعة ، لم تمنعه من رؤية دموع تنزل من عينى زوجته وابنته . مثلما إنه يوم الحساب يكون السفر فى المطار . لا يسأل أحد عن أحد . فلكل مسافر همٌّ يُلهيه ويُنسيه . كم قال لنفسه وهو حزين : متى يدرك أهل المطار أن المسافرين بشر .. لهم قلوب مجروحة .. وأعصاب مرهقة .. وعقول تائهة .. ولكن كيف يعرف الماءُ حرارةَ النار .؟!

مع نسمات الفجر تهبط من بعيد .. بطيئا .. بطيئا ، توشك .. أن .. تجىء .. أغلق القفص الحديدى على الطير المسافر . أحس فى الأتوبيس الطائر — وهو يضع حقيبة اليد بجواره — أنه غريب .. غريب .. وحيد .. وحيد .. بلا ماضى ولا مستقبل . جمع الزمان فكان هذه اللحظة الرهيبة الرغيبة . نجرى دائما وراء الأمل وحين ندركه نحس أنه سراب

سرمدى . لكن الأنهار إلى الجريان ينبغى أن تكون .. الإرادة لابد أن تلد الحركة . كرامةً تُكرم فى الحياة إذا دفعتَ الثمن . احتقارا تُحتقر إذا كنت صاحب اليد السفلى ..!!

مضيفة ممشوقة وقفت فى مقدمة الطائرة ، وبدأت تتحدث بطلاقة ، تشرح تعليماتها التقليدية إلى الركاب عن منع التدخين وربط الأحزمة وبدلة الإنقاذ ومسار الرحلة . كان الطير المسافر فى موسم الهجرة إلى الشرق ، يحس أن قلبه مربوط بأرض الوطن بسلاسل من حنان فطرى وحب أبدى . الفجر يؤذن بالمجىء . من خلال النافذة الزجاجية بدت القاهرة من بعيد ، غارقةً فى ثياب متفاوتة بين النور والظلمة ، كاد يصرخ .. هذا فجرُ الكون فمتي يأتى فجرك ياقاهرة .؟!

شيئا فشيئا بدأت الطائرة تعلو .. تعلو .. والوطن يلفه ضباب كثيف . أحس أنه يغادر كعبته .. جنته .. مصدر وجوده .. سر حياته . أحس كما آدم يخرج من دار الخلد يكون . أقسى عذاب صنعه الربُّ بآدم أنه فرّق بينه وبين زوجه .!!

حيرة جنونية تنطلق فى أعماقه .. تراءت له صور كل من يعرف كأنها برق خاطف .. مرت أمامه صورة أمه .. النملة التى كانت على الحائط .. زوجته سامية .. ابنته ألطاف .. ابنه حامد .. رئيس تحرير الجريدة .. أصدقاؤه ..

أصدقاء الليالى السوداء .. وأخيرا منظر كورنيش النيل . اشتاق إلى جرعة عذبة من ماء النهر الخالد . دمعة حارة سقطتْ من عينيه ، وهو يهتف من أعماقه صارخا فى وادى ضميره .

عمار يا مصر .. عمار يا مصر ..
سأعود .. سأعود إليك.(*)

(*) كتبت فى مدينة العين بأبى ظبى .. أكتوبر ١٩٧٧ .

موقف في حياة امرأة

فتحت الباب اليمين لسيارتها « الفيات » الخضراء ، وحنت رأسها فى تواضع متعمد ، وقالت له :

ـــ تفضل يا أستاذ ..

جلس فى مكانه صامتا ، بينما كانت تدخل من الباب الآخر فى خفة وسرعة . وضعت المفاتيح لكى تدير العربة ، أخذت تحرك المارش ، ثم داست على البنزين فانطلقت السيارة . نظرت إليه مبتسمة ، وقالت :

ـــ أرأيت كيف تغير العالم .. أنت تجلس مثل الأمير .. وأنا السائق .. وأقول لك أمرك يا سيدى ..؟!

ـــ العفو يا آمال هانم .

ـــ الساعة الآن ؟

ـــ الثانية والنصف .

ـــ حتى الساعة التاسعة .. يكون أمامنا حوالى ست ساعات نقضيها سويا .. إليك الأمر .. وعلىّ التنفيذ .. أين تذهب ؟

ـــ كما تريدين .

ـــ قلت لك السيارة وصاحبتُها ستذهب كما تريدُ أنت ... قل إذن وخلصنا .

ـــ أقرب شارع يؤدى إلى النيل .

كانت نسائم الليل ومناظر الخضرة تخفف قليلا من حرارة مايو .

ـــ كيف أنت ؟

ــ لست سعيدة ولا حزينة .. بين بين ــ وأنت ؟

ــ أنا دائما على ما يرام .. وهذا يكفى .

ــ يكفى لماذا ؟

ــ يكفى لتسير الحياة .. خلى بالك لن نتعدى كوبرى الجيزة .. ميلى يمينا ثم يسارا .. وسوف نتوقف عند الكازينو الثانى .. كازينو الحمام .

دخلا الكازينو بعد أن هبطا عدة درجات .. بدا الكازينو عشا جميلا فى حضن النيل .

ــ مكان جميل .. لا شك أن لك فيه ذكريات ؟

ــ الإنسان حيوان تاريخى .

ــ إذن أنت لا تنفى التهمة (ضحكت فى رقة) .

هذا المكان قد شهد بالفعل أول حب رومانسى عاصف فى حياته . كان يلتقى فيه بسميرة أثناء دراستهما فى الجامعة .. كان الحب غاية الحياة ، حينما كان القلب أخضر والنفس ساذجة . أما الآن ..!!

ــ لن أتركك تختار المكان .. سأختاره أنا .. لا أريد أن تربط اليوم بالماضى .

اختارت آخر مائدة بجوار النيل ، سحبت لها كرسيا حتى تجلس ، لف حول المائدة وجلس أمامها . لم تدر أنها اختارت نفس المائدة .. نظرت إلى النيل ، وهى تتأمل الموج الهادى والحشائش المتناثرة .

ــ يا سلام على الماء والخضرة !

ــ والوجه الحسن يا آمال هانم .

ــ حقيقى مكان لطيف .

ـــ ماذا تشربين ؟

ـــ ليمون .

كانت يدها اليسرى تعبث فى حقيبتها السمراء بينما عيناها تسبحان فى النيل حيث التقى بالأفق البعيد .

ـــ ما رأيك ؟

ـــ ....

ـــ آمال عندى اقتراح .

ـــ وهو .. ؟ .. قل .. لا تنكسف .. لا أريد أن أرد لك اليوم طلبا .

ـــ البيرة المنعشة .. علاج الحر .

ـــ لا بأس .

أحس أن إجابتها أميل إلى الاختصار ، وروحها أقرب إلى الصفاء . لكنه لا يدرى ماذا تريد منه هذه السيدة على وجه التحديد . على كل .. لا داعى للعجلة ، فسوف تساعدها البيرة على الكلام .

وضع الجرسون أمامهما زجاجتى البيرة والأكواب وانصرف فى هدوء . صبّ لها كأسا ولنفسه من ذات الزجاجة كأسا أخرى . بدت البيرة فى الكوب مثل سبيكة من الذهب ، تعلوها رغوة مثل اللبن الحليب .!

ـــ فى صحتك يا آمال هانم .

ـــ فى صحة اللقاء الأول يا عبد الوهاب .. اسمح لى أن نتعامل من غير ألقاب ، قد نصبح أصدقاء .

ـــ موافق .

ـ لم رفضت أن نتحدث في المكتب ؟

ـ المكتب للعمل .. ولكن الحديث بين الأصدقاء يتطلب نوعا من الوحدة ، حتى لا يقطع الحوار متطفل .

لم يكن صريحا فى تبريره ، كان يدرك أنهما يعملان فى مؤسسة ضخمة ، بها سبعون عاملا ومائة موظف ، وحوالى مائتى صحفى ، وهى سيدة متزوجة ، وهو رجل أعزب . خشى أن يؤول الكلام بينهما ، كما أنه حريص على سمعته أكثر ، فقد جاهد وكافح ليثبت لنفسه مكانة محترمة بين كل الزملاء . كان العقل دائما سيد الموقف عنده ، بعد تجربة حب فاشلة ورغبة عنيدة للنجاح فى العمل .

ـ كانت مقالاتك الأخيرة عن « أثر البترول فى حضارة العالم » ممتازة .

ـ هال أعجبتك .؟

ـ كان تناولك للموضوع أكثر من رائع .. وإنْ رأى بعض الخبثاء أنك تتحول عن الكتابة فى السياسة والثقافة ..!

كان يدرك أنها تحاول البحث عن أى كلام لكى تبدأالمناقشة ، كما أدرك ـ أنها لم تشأ أن تحدثه عن كل تلميحات الزملاء : البعض قال إنه يمهد بهذه المقالة لرحلة عمل إلى بلاد البترول الغنية ، وفريق آخر قال إنه أصبح مهادنا فى السياسة بعد اعتقال أحد أصدقائه المقربين ، أما الخبثاء الذين أشارت إليهم آمال فقالوا إن التحول وراءه قصة حب جديدة لعبد الوهاب ، لكنهم لم يعرفوا حتى الآن لشدة حرصه ـ من هى ؟

ـ أنت تعمل كثيرا جدا .. وأنت متجهم دائما .. لماذا .؟

ــ المطبعة الآن يا سيدتى تخرجُ كل دقيقة كتاباً .. والحياةُ تلد كل لحظة حدثا .. علينا أن نتابع كل هذا لنستطيع أن نكتب .. الكاتب عينُ المجتمع .. هذا وإلا ..

ــ عندى تشبيه سخيف أتحب أن أقوله ، أنا صريحة ، وأكره اللف والدوران .

ــ قولى إذن .

ــ يبدو لى أحيانا أن الله لو لم يخلقك إنسانا وخلقك ثورا .!

انتظرت لحظة لترى وقع حديثها عليه .. ثم ابتسمت فى رقة :

ــ أستاذ عبدالوهاب ألم تحب .؟!

ــ ليس المهم أن نعرف الحب .. وإنما أن نعيشه .

ــ كيف ؟

بدأ يدرك أنها تقترب من موضوع المناقشة . حاول أن يجعل فكره واضحا وعبارته مباشرة ، حتى لا تحاول أن تفسر ما يدور فى عقله بما يدور فى عقلها هى ..!!

ــ أنا إنسان محبّ للحياة .. للقراءة والتأمل .. للحديث والمناقشة .. أحب كل الناس .. لكنى أقدر الجانب الحيوانى فى البشر ، لذلك أتعامل معهم بصبر وهدوء .

ــ إذن أنت تحب الحياة بعقلك .

ــ يعنى .

ــ يعنى ماذا ..؟

ــ لا أقبل الفصل التعسفى بين الروح والجسد .. أو بين العقل

والقلب .. وأنت ؟

انتظر إجابتها على تساؤله ، بينما كانت ترقب فى طفولة مرحة منظر عصفور ملون يقف على الشاطئ وهو يتناول رشفات سريعة من الماء ، ثم طار .. بعيدا ، وهى تحاول تتبعه إلى أن ضاع فى الأفق . كان يرنو إليها صبورا حانيا ، تختلط فى أعماقه مشاعر شتى . كانت امرأة فى الثلاثين قد تفتحت كل خلاياها الجسدية والإنسانية ، المرأة الحقيقية هى المرأة الناضجة .. المستوية . لم يدر لم أعجبه تمسكها بشعرها الأسود الطويل ، والقُصَّة التى تعلو جبهتها وتمتد إلى سوالفها مغطية أذنيها الرقيقتين . لمح أن هناك غمازة ساحرة أسفل الذقن تجمل وجهها النحيل ...!!

قدم لها كأس البيرة بعد أن أكملها ، ثم قال لكى يقتل الصمت :

ــ قال أبو نواس لا تشرب البيرة من غير سيجارة .

ابتسمت فى سذاجة عذبة :

ــ لا أدخن .. لكننى سآخذها من أجل خاطرك .

ــ التدخين ظاهرة عصرية .. وحين سيؤرخ العلماء لهذه المرحلة من حياتنا سيذكرون أننا فى عصر « الدخان » . المصانع تدخن .. والأفران تدخن .. والسيارات .. والقطارات .. والطيارات .. وسوف ينتهون إلى أنه كان على الإنسان بالضرورة أن يدخن ، لذلك سوف يعرّفون إنسان تلك المرحلة بأنه « حيوان مدخن » .!!

أخذت نفسا طويلا وطردته بسرعة .

ــ ألا تحس بالملل والكآبة .. إنى أحب الفرح بالحياة .. غير أنى لا أكاد أجد ما يفرح فى هذا العالم .. أحيانا أتعمد أن أضحك .. أو أضحك من

معى .. ولكن الضحك لا يخرج أبدا من القلب .

ــ هيه .

ــ أكثر من هذا .. أحس أحيانا كثيرة بعد الضحك أنه سوف يقع لى شىء ما محزن .

ــ وما تفسيرك لهذ الأمر .؟

ــ هناك شىء ما خطأ بالتأكيد .. هل هو نتيجة تربيتنا المحافظة .. علاقاتنا غير الصحيحة .. حياتنا غير المنظمة والمنتظمة .. الظروف الصعبة التى نمر بها .

أخذ رشفة من البيرة فكان لها طعم لذيذ ، حين امتزجت بدخان السيجارة .

ــ أنتِ على وجه التحديد .. إذا كان الحديث لا يضايقك ؟

ــ لا بالعكس .. أنا التى طلبت الحوار .

نظر فى عينيها المسكرتين ، اللتين يحيط بجفونهما سواد خفيف .

ــ ما الذى ينقصك أنت حتى تكونى سعيدة ؟.. يبدو لى أنك سيدة ذكية .. الذكاء ضرورى لاستمرار أى حياة أسرية .

ــ بالمناسبة .. لماذا لم تتزوج .. أنت ناجح .. وسيم .. شاب فى الخامسة والثلاثين .

ــ لا .. فى الأربعين .. لو سمحت .

ــ على كلٍ لم يفتك القطار بعد .

ــ لى رأى خاص فى الزواج سأقوله بعد أن أسمع كلامك .

ــ كنتُ فتاة جميلة .. من أسرة متوسطة الحال .. حصلت على

ليسانس الآداب من قسم الفلسفة .. لم تستطع دراسة الفلسفة أن تصحح ما أفسدته فيَّ التربية المحافظة والقصص الرومانسية .. وأغانى الحب الحزين ، التى عقدتْ معها الإذاعةُ عقدا أبديا ..!

ــ ماذا تقصدين!؟

ــ كنت رغم هدوئى الظاهر أميل إلى التمرد الداخلى .. كانت أشواقى حالمة وطموحاتى لا حدّ لها .. كان لى أصدقاء ومعجبون بعدد شعر رأسى .

ــ بالمناسبة شعرك جميل .

ــ أشكرك .. كنت مترددة فى الزواج .. كنت ولا زلت ..

ــ ولا زلت .!

ــ لا زلت أخشى على نفسى منه أو أخشى عليه منّى ..!

ــ وتقولين إنك لم تستفيدى من دراسة الفلسفة يا آمال .. بينما أنا لا أستطيع أن أضع النقط فوق الحروف فيما تقولين .

ــ ما أقوله تعلمته من فلسفة الحياة .. الحياة أكبر جامعة .

ــ صحيح .. ولكن ..

نظرت إليه فى حدّة :

ــ ألا ترى أنك متعب .؟

ــ أنا .؟

أفزعه السؤال رغم أنها تتحدث فى بساطة .

ــ أعطنى سيجارة .. ولو سمحت لا تقاطعنى .. دعنى أتحدث .. وحين أنتهى علّق على كل ما تريد .

فى الماضى منذ سبعة عشر عاما حين كان يلتقى فى نفس المكان بسميرة ، كان هو المتحدث الأول والأوحد ، كانت تكتفى منه بالنظرات الحالمة ولمسة الكف الحنون . كانت تسبح فى نهر الحياة والحب بعينيها ، وتحس بأن كلامه يقبل مسامعها ، فتشعر بنشوة لذيذة وهو يتكلم عن المستقبل والبيت ، حتى الأطفال .. اتفقا على أن يكون اسم الولد « أمل » والبنت « وفاء » . ضاعت الأحلام القديمة ، كلما فرغ كأس يحاول أن يملأه من جديد .!!

ــ آسف .

قالها فى سرعة كأنه لم يكن يريد أن ينطق بها ، فهو لا يحب الاعتذار حتى أمام المرأة ، لكن للتحضر أحكام .

ــ حينما تخرجتُ فى الجامعة كان أبى يريد أن أعمل مُدرسة .. لكنى رفضت وفضلت الصحافة .. كثر بعد عملى الخطاب من الأهل والزملاء ، لكنى كنت أرفض بإصرار . أحسست بأنى أهين كبرياء أبى ، الذى كان يعاملنى بمنتهى الرفق . كان صديقا لى ، ويعرف أنه ليس فى حياتى رجل .. غير أنه لم يستطع أن يفهم سر رفضى المتكرر ، خاصة وقد أصبحت أختى الأصغر منى عروسا هى الأخرى ، وكانت الرغبة فى البيت كل آمالها . مصادفة التقيت بطبيب عيون ناجح فى حفل خطوبة إحدى صديقاتى .. سألنى فى البداية عن الساعة .. ثم أخذنا نثرثر فى أحاديث عامة .. رأيت فيه بعض ما يرضى كبريائى وطموحى .. تقدم إلىّ بعدها بيومين فلم أمانع ، وتزوجنا بعد شهرين من التعارف .

سكتتْ كأنما الذكرى حِمْل يُثقل خواطرها . قدم لها الكأس

وأخرج سيجارة فأمسكت بها ورفضت إشعالها . أخذت رشفة من الكأس ونظرت إلى أعماق البحر ، حيث كان هناك مركب شراعى.. بعيد قرب نهاية جزيرة الروضة .

ـــ دام زواجنا السعيد شهرا واحدا .. كان شهرا بالدنيا كلها .. زرتُ فيه كل الأماكن السياحية فى أسوان والأقصر والفيوم .. وكل المصايف فى الإسكندرية ورأس البر وبلطيم .. رأينا المتاحف والحدائق والسينما والمسرح .. حتى كازينوهات الرقص الليلية .. بعد هذا عاد لعمله المرهق وعدت للوحدة المريرة .!

أشعلت سيجارتها وأخذتْ نفسا عميقا ، بدرجة جعلته يستغرب كيف تدخن بمثل هذه الشراهة وهى لم تدخن من قبل كما تقول . ابتسم فى داخله لفكرة « الإنسان حيوان مدخن » .

ـــ أغراه النجاح فى العمل بمزيد من الإخلاص له ، وأحسست بأن علىّ أن أكتفى من الحياة بدور الزوجة الوفية لرجل ناجح . ولدت له طفلة .. وأصررت على رفض مواصلة الإنجاب .. واحترم رأيى بقدر ما احترمت إرهاقه . الآن بعد سبع سنوات من الزواج والأمومة والعمل .. تغيرت كل أفكارى .

نظر إليها محترما صمتها الحزين ..

ـــ بعد مدة قليلة سوف أجوع بشدة .. فكّر فى الغداء .

ـــ لقد فكرت من قبل .. سوف نتناول الغداء هنا .

ـــ لك هدوء وصبر تحسد عليهما .

ـــ هذه مجاملة رقيقة أشكرك عليها .

ـــ لا أحب المجاملات .. لا أقول إلا ما أراه صحيحا .

ـــ عظيم .

كان يتعمد الردود المختصرة ، حتى لا يغيّر مجرى الحديث . أخذ يعبث بالولاعة وعلبة السجائر .. نظر إلى حقيبتها السوداء الأنيقة ، تبدو صغيرة وعملية ، لها يد يمكن أن تطول أو تقصر ، هناك زخرفة بسيطة عند الغطاء . كان لون الحقيبة أسود مثل الجونلة ، والنقوش الحمراء فى الحقيبة مثل لون البلوزة ... ولون الصندل . تعجب كيف لم يكتشف حتى الآن أناقتها الهادئة . فى رأيه أن هناك علاقة بين الشكل والمضمون ، بين ملابس الإنسان وروحه ، فنحن نختار ملابسنا بنفس الطريقة التى نمارس بها حياتنا .

ـــ ألم تحلم يا أستاذ عبد الوهاب ؟

ـــ نعم .؟!

ـــ حلم .. ألا تنام مثل البشر .. وتحلم فى الليل ؟!

ـــ لا أفهم ما تقصدين ؟

ـــ شيء محيّر .. عندما ينام الإنسان يُصبح ضعيفا بلا حركة ، ومع ذلك يحلم أحلاما طويلة عريضة .. وحين يقوم من النوم يصير قويا متحركا ، يعجز عن تحقيق أى خطوة مما كان يفعله فى الحلم .

ـــ عدنا ثانية إلى الفلسفة يا آمال .

أدهشته هذه الحقيقة ، التى وضعت يده عليها ببساطة ، كأن السؤال يطرح نفسه على فكره لأول مرة .. لم نعجز فى النهار عن تحقيق كثير من الأحلام التى نراها فى الليل .؟ كم قرأ وفكر .. لكن هذه السيدة تضع يده

على حقائق باهرة ، صحيح أن الحكمة ليستْ فى الكتب وحدها . كان يراوده من قبل وهم أنه سوف يصحبها إلى رحلة غرامية للترفيه . ولكن هذا هو الأستاذ عبد الوهاب رفاعى الصحفى المفكر ، يكاد يسقط فى أول اختبار عملى له .. ومع من ؟ مع سيدة كان يظن أنها لا مبالية .. أياً ما كانت دراستها أو عملها .. هى فى النهاية امرأة والسلام .!!

ــ ولكن ..

ــ ولكن ماذا ؟

ــ هل قبّلت فى حياتك ــ ولو لمرة واحدة فقط ــ امرأة تحبها حبا حقيقيا من كل قلبك ؟

ــ القبلة الآن شيء عادى فى حياة الإنسان .. شيء عادى أن تقبّل صديقك أو حتى صديقتك أمام الزوج .. أصبحت القبلة الآن جزءا من السلام مع من نحسّ بالقرب منه .

ــ يبدو أنك لم تفهمنى .. القبلة صحيح شيء عادى ، إنما المهم هو الحالة الشعورية التى تسيطر عليك وأنت تمارسها مع من تحب .!!

نظر إليها فى صمت . حيرة شديدة احتار فى فهم ما ترمى إليه . تشاغل بإشعال سيجارة وأخذ يكمل الكأسين فى صمت .

ــ لا أريد أن أعرف شيئا عن ماضيك .. وإنما أردت أن تقرأ معى ماضىّ أنا .. وأن نتناقش فيه سويا . أعرف أنك لا تتفق معى كثيرا .. وقد تعمدتُ أن أناقش إنسانا .. ليس معى على خط واحد .. ليثرى الحوار بيننا .

ــ وماذا بعد ؟

ــ ألم تفكر وأنت تكتب عن أثر البترول فى الحضارة أن تتطرق إلى أثر الحضارة والبترول سويا على .. الحب ؟

ــ فكرة جميلة ، ولكنها لم تخطر لى على بال .

ــ فكرة جميلة .. هذا حكم أخلاقى .. ما أريده هو الحكم الموضوعى .

ــ لا أرى تعارضا بين كون فكرة ما أخلاقية وموضوعية فى آن واحد .

ــ أستاذ عبد الوهاب ، واحدة من اثنتيْن .. إما أنك خبيثٌ جدا .. أو غبىٌ جدا .. فماذا تفضل ؟

ضحك بملء فمه ضحكة طفل ، بينما هو الرجل ذو الأربعين عاما أحس أنه لم يضحك مثلها قبل ذلك أبدا .

ــ لا هذه .. ولا تلك .

ــ ألست معى يا عزيزى أننا فى عصر الحضارة والبترول فى حاجة إلى .. قاموس جديد .. لحياتنا الاجتماعية والعاطفية .

ــ نعم .

ــ أليس من الظلم فى عصر الرادار والتليكس والأشعة السينية والذرة والتليفزيون الملون ألا نمزق أوراق القاموس وألا نغير طبيعة العادات والتقاليد .؟!

كان يحس أنه فأر فى مصيدة ضيقة . ضاعت حكمته ، وماتت فلسفته . كانت تفتح عينيه بمشرط وتعذب روحه بمكواة كهربائية .

ــ أحس بالملل فى حياتى .. ما زلتُ زوجةً وفية ، وأنا حريصة على أن يستمر البيت .. زوجى رجل جاد مهذب .. وابنتى زهرة طيبة .. ولكن

أنا .. أنا أريد أن أتفسح .. أشم الهواء .. أذهب إلى السينما .. أجلس جلسة مثل هذه مع صديق مثلك .. أسافر فى رحلة .. ولكنى أخشى أمثال هذه الكلمات الباهتة : الخيانة .. الغدر .. الغيرة .. التقاليد .. الطلاق .. سمعة الأسرة .. كلام الناس .!!

سكتت كأنما تلتقط أنفاسها ، وأخفت توترها بتسوية شعرها وسحبه بعيدا عن رقبتها .. رقبة الغزال ، فبدا على بلوزتها الحمراء مثل ذيل حصان عربى .

ــ الإنسان ذلك الكائن العجيب .. أعظم عناصر الوجود ، يطوّر كل شىء فى الحياة إلى أحسن ، لكنه فى الزحام ينسى دائما أن يطور حياته .!!

ــ بمعنى ؟

ــ الزواج ذلك التقليد الغريب بهذه الطريقة العجيبة التى نمارسه بها .. أليس سجناً أو جحيما ..؟ كيف يكون جسدى أنا .. الذى هو ملكى أنا .. أنا وحدى .. ملكاً لغيرى ــ حتى وإن مللتُ .. وإن كرهتُ ..؟!

لقد شغله الطموح الزائد والفشل المبكر فى الحبّ على أن يظل أعزب .. مؤمنا بأن الزواج ــ رغم كل مزاياه ــ أسوأ نظام اجتماعى اخترعه الإنسان ، لتدمير ما فى الإنسان من إنسانية .!!

عجيب أمر هذه السيدة إنها تقدم ببساطة شديدة ما كان يظنه ثمرة للتفكير والتأمل ، أدرك أن الخبرة قد توصل إلى ما ليس سهلا اكتسابه بالدراسة ، لكنه أصرّ على أن يقاوح ..

ـــ الزواج مسئولية .. وعلى من يقبله أن يتحمل مسئولياته .

ـــ ألم أقل لك إنه من الأفضل أن تخرس حتى أنتهى من كلامى ؟

رمقته فى حدة .. بينما بسمة حائرة تملأ وجهه .

ـــ عالمنا الداخلى .. عالم غريب عجيب .. كله عُقد وكبت .. وتراث آلاف السنين من الضغوط غير الإنسانية . لا يرى أحد .. أى أحد ما بداخل الآخر .. حتى لو كان أقرب ـــ الناس إليه .. ومع هذا ..

ـــ هيه .

ـــ ومع هذا لا سلامة لأى شيء .. أى شيء فى العالم الخارجى ، إلا إذا كانت هناك سلامة حقيقية فى العالم الداخلى .

ماذا تريد هذه السيدة على وجه التحديد .؟ ليس يدرى ..!!

ـــ رغم كل إيمانى بالبيت والأسرة أحس بحاجة حقيقية إلى صديق .. زوجى إنسان مشغول دائما .. أصبح البيت مثل الفندق .. للأكل والنوم وتغيير الملابس .. مللت ثرثرة الزملاء والزميلات ، الحديث عن غلاء الأسعار .. أزمة السكن والمواصلات .. الموضة .. الخلافات الزوجية .. الإشاعات الصحفية حول رجال السياسة والمجتمع والسينما .. مللت .. مللت ..

توقفت فجأة ، ونظرتْ إليه فى صمت رهيف .

ـــ صُب لى كأسا .. واشعل سيجارة لو سمحت ... ولكن قل لى بالله عليك .. هل خطأ أن أبحث عن صديق يُحيى روحى الميتة .. لكى أحس أننى قادرة حتى لكى أواصل حياتى فى البيت والعمل ..؟!

سكتت وهى تنظر ناحية النهر الخالد ، كم مرتْ عليه سنون وهو لا يمل

ولا يشكو ولا يزال متدفقا واهبا الحياة ..!!

ـــ هل هذا سؤال لى ؟

ـــ نعم .. قبل أن تجيب اعرف أنى سيدة طيبة ، لكنى لست ساذجة .

ـــ ماذا ..؟

ـــ لا أريد بغبغة لفظية .. لسنا فى محاضرة .. ما أريده هو الحل العملى

.. قد أحترم رأيك .. وقد ..

ـــ قد ..

ـــ قد لا أقتنع به على الأقل .

ـــ يكفى وحياتك .

ـــ قبل أن تتحدث أظن أنه لا مانع من أن تفكر فى الغداء .. ماذا يقدمون هنا ..؟

ـــ كل شىء .. اللحم بأنواعه .. والفراخ .. والحمام .

ـــ يكفى اليوم الحمام .. موافق .؟

ـــ كما ترين .

انشغل بالبحث عن العامل ، بينما وقفت هى وأخذت تدور حول المائدة تتأمل الزبائن والمكان . كانت ممشوقة القد مثل شجرة نخيل . تأملها فى إعجاب وهى تقول :

ـــ تصور ؟

ـــ ماذا .. ؟

ـــ الأستاذ عبد العزيز رئيس قسم الحوادث مشغول هناك مع فتاة صغيرة .

ـ هل تخشين كلام الناس ؟

ـ اسمع يا أستاذ واعرف .. إننى إذا فعلت شيئا فلا أفكر فى الخوف .. نحن لا نسرق .. إننا نجلس فى مكان عام .

جاء الجرسون وهو يطلب منه الغداء وزيادة سلطة الطحينة التى تحبها ، جلس وحيدا إلا من سيجارته وكأسه ، بينما ذهبت إلى دورة المياه ـ رغم أنها تعرف أن الرجل الذى تحدثت عنه قريب منها كأنما تتعمد أن تريه نفسها . مضت واثقة الخطى تسير بهدوء كأنما تتأمل كل عنصر فى المكان .. عادت فاتحة للشهية مثل الحورية . كانت قد صحبت حقيبتها وأعادت تجميل وجهها وتصفيف شعرها المسترسل . وضعت عطرا نفاذا سبقها إليه . قام حتى جلست ونظر إليها مبتسما فى رقة ، بينما قالت معابثة : عقلى عقل رجل .. لكنى فى النهاية امرأة .. ليس بيدك أن تكون جميلا ، ولكن بيدك أن تتجمل .!!

ـ يبدو لى أن عقلك أكبر من سنك .

ـ أنا كبيرة بالفعل .. أنا أم .. أم عروسة .

ـ ما سوف أقوله وجهة نظر خاصة .. لا أدرى إلى أى حد يمكن أن تكون موضوعية .؟

ـ دع تقدير رأيك دائما للآخرين .. عليك أن تتحدث مباشرة .. تذكر أنك لا تكتب مقالا للمجلة فاترك المقدمات .

ـ الزواج يا آمال شركة مساهمة على الأعضاء الأساسيين فيها أن يتحملوا مسئولية المكسب والخسارة سويا . كثير من الشركات تخسر وتتدمر بسبب الاختلاسات أو الإهمال . الإنسان حينما يتزوج يبذل جهده لإنجاح الشركة التى ارتبط بها ، طالما أنه يحس بأن العضو الآخر يتحمل مسئولياته ويفى بالتزاماته . أنا معك فى أن الزواج عملية اجتماعية

مرهقة . تقضى عمرك كله فى معاشرة إنسان واحد ، يكون أول وآخر ما تتفتح عليه عيناك ..

ـ نعم .

ـ تشاركه نفس الأكل والشرب ، وتتحمل معه قسوة الطبيعة وصعوبة الحياة ، تصحبه فى الأفراح والمآتم ، تكتب اسمه فى البطاقة العائلية وبطاقة التموين .. فى النهاية تريه من الأعضاء ما لا يرى أى إنسان غيره فى الوجود .

ـ وماذا بعد ؟

ـ المفروض أن يستمر الزواج طالما أنه مفيد ومُسعد للطرفين ، ولكن من النبالة ألا يتخذ فيه شريكٌ قراراً دون أن يُعلم الآخر به ..!!

جاء الجرسون وأخذ يضع أدوات الطعام وهى تساعده . تحركت يداها فى خفة لتجهيز المائدة كما تريد هى . لاحظت أنه لم يحضر الملاحة فطلبتها منه . بدآ الأكل فى صمت .

ـ أكمل حديثك .. لن آخذ شيئا من نصيبك .

ـ نظر إليها مبتسما ، وهو يضع حمامة فى طبقها حاملا إياها بالشوكة والسكين .

ـ هذا عن الزواج كطقس اجتماعى ، أما الحب فشىء آخر .. بعض الناس يحب لكى يتزوج ، والآخر يتزوج لكى يحب ، والبعض لا يحب ولا يتزوج ..!!

ـ مثلك يعنى .؟

ـ لا .. أنا حالة مستعصية تحتاج إلى بحث خاص .. الحب فى تقديرى

نوع من الإيمان ، أو هو بالتحديد حالة وجْد صوفى . الكلام العقلى والتفكير المنطقى يذبحه كما تفعل السكين بالحمامة . حينما تحب وتحس أن الحب يملأ عليك خواطرك فى الليل والنهار ، ويبهج حياتك كلها ، فلا تقل لأحد .. أى أحد إنى أحب ، لأنه سيعد كلامك نوعاً من التخريف المسلى .

ــ أليس عجيبا أيها الفلاح الفصيح أن تأكل الحمام بالشوكة والسكين ، وأن تتحدث عن الحب بهذه اللغة السوقية .؟!

ــ إذا لم يعجبك رأيى أتوقف .

ــ قل .. قل شمس الأصيل ظهرت والهواء يتسع صدره لأى كلام .

ــ يبدو أن رأيى لا يعجبك .

ــ من عبث الأقدار أن يكون قريباً مما أراه . وهذا سر سخريتى .!!

ــ الحب حقيقةٌ أسمى شىء فى الوجود ، بدونه تصبح الحياة مائعة كالطعام بلا ملح ، ولكن حياتنا المضطربة قلما تسمح بتحقيق الحب ــ وإن سمحت به فإنها تسلبه سريعا . لا حبَّ بلا حرية إنسانية .. كل ما فى الحياة من شرور وحروب لأن الأحياء ضلوا طريق الحب .. ماتت الإنسانية فى الإنسان ، واستيقظ الحيوان ، وهذه هى النتيجة : الحرب .. الظلم .. الغربة .. الكآبة ..!!

قذفتْ فى فمها قطعة من صدر الحمامة قائلة :

ــ أنت الذى يتفلسف الآن .. لا تحول الموضوع إلى قضية أيديولوجية .. أفضل المباشرة والوضوح .

لفت نظره للمرة الثانية دائرة بنية تحيط بالعين الغائرة ، كان يحس أنها

رمز لسحابة حزينة فى حياة هذه السيدة .

ـــ باختصار شديد .. الحب هو العطاء والتفاهم .. أن تحس بأن هناك شخصا واحدا فى الوجود تستريح له رغم ما قد يكون بينكما من اختلاف .

ـــ وإذا حدث هذا فى حالة مثل حالتى يا عبد الوهاب .؟!

ـــ ايه .. نعم .. كنتُ أتحدث بصفة عامة .

احتست رشفة من كوب البيرة ، وغمست قطعة خبز بالشوكة فى طبق الطحينة .

ـــ لكن السؤال الأساسى حول حالة خاصة .. قل بصراحة أنا حائرة حقيقة .. ألا يصح أن أحب رغم حرصى الشديد على أن أظل زوجة وفية .

ـــ ولمَ الحيرة ؟.. الحب حالة خاصة لابد أن نستجيب لها بشرط ألا تؤثر على حياتنا العامة .

ـــ لماذا تبدو متزمتا هكذا ؟!

ـــ بمعنى آخر .. يصح للإنسان أن يفتح كشكا صغيرا بشرط ألا يتخلى عن الدكان الأصلى .

ـــ قد يحقق الكشك ربحاً أكثر من الدكان .

ـــ آه .. تقولين قد .. فى هذه الحالة يجب أن تراجع الحسابات بدقة ، حتى تصفى الشركة الأساسية أسهمها فى الضوء ، وتبدأ شركة أخرى بتقدير أنها سوف تكسب حياتنا بهجة أكثر وإنتاجا أفضل . ولكن ..

— ولكن ماذا ؟

— فى تقديرى أننا فى عصر .. الانفتاح فيه ضرورة .. وسوف نجد أنفسنا شئنا أو لم نشأ مجبرين على وجود هذه الأكشاك الصغيرة فى حياتنا .

— يسمونها الآن بوتيكات يا عبد الوهاب .

— ليس المهم التسمية .. المهم هو الوعى .. الوعى النبيل بأى خطوة نخطوها .. حياة وقلب وجسد كل إنسان ملكه الخاص .. وعليه أن يتصرف بها أو فيها كيف يشاء .. بشرط أن يكون مقتنعا بما يفعل .. وشرط آخر ..

— ما هو ؟

— أن يحس إحساسا حقيقيا بأنه يُسعد نفسه .!

— متفق معى إذن فى ضرورة تغيير القاموس الأخلاق لحياتنا ، حتى تكون أكثر بهجة وإشراقا فى عصر الدخان .

— أنت عظيمة ...!

اختفت أشعة الشمس وهما ينتهيان من الغداء . لأول مرة يشعر بأن الحوار الجيد ، ألذّ من فعل جنسى ، وأكثر نشوة من قبلة !!

— هل تأخذين قهوة أم شاياً ؟

— أفضل أن يكون ذلك فى مكان آخر .. ألم تعرف أنى أمل بسرعة .

— فكرة عظيمة .. نحن فى زمن السأم يا عزيزتى ، وعلينا أن نجدد حياتنا باستمرار حتى نستطيع مواصلة الرحلة .

استقرا فى العربة وسارا بحذاء النيل ، وهما يحسان نشوة حقيقية ،

نشوة الإنسان حين يجد فى الآخر إنسانا ، يشاركه الرأى ، ويتفق معه فى طريقة التعامل .

ــ أسرعى حتى أريك أروع منظر لا أمل رؤيته أبدا .. وأعود إليه عندما أحس بزهق من الدنيا .

ــ ما هو ..؟

ــ منظر الأهرام عند المساء ، أجلس على مرتفع قليل ، وأنظر إلى الصحراء ، وهى تعانق الأفق ، وأحس نفسى سيد الكون وقمر الزمان .!

ــ ما هذه العظمة .. أنت مفكر أم شاعر ؟

ــ الفكر شىء أساسى ، ولكن الشعر كشك صغير لا أستطيع الاستغناء عنه .

ضحكا ضحكة عالية من القلب . اتجهت العربة ناحية شارع الجيزة ثم نفق الهرم . انتهز فرصة انشغالها بالسواقة ، وبدأ يعبث فى شعرها . نظرت إليه دون أن تترك عجلة القيادة .

ــ هذه حركة مراهقين .. نحن فى شارع عام .

عند حى « الطالبية » الشعبى خرج طفل صغير يلبس جلبابا ، ظهر كأنما انشقت عنه الأرض . أخذ يعبر الشارع دون أن يلتفت أو يهتم بحركة السيارات . حاولتْ .. حاولت .. أن تتفاداه . كلما تحركتْ .. يمينا .. أو شمالا .. وجدته يجرى أمامها . هزته المفاجأة .. وضع يده اليمنى على عجلة القيادة .

ــ حاسبى يا آمال .. اهدئى .. قفى .

نظرتْ فى المرآة فرأت خلفها شاحنة كبيرة . إما أن تقتل الطفل .. أو تقتلهما الشاحنة . أخرجت يدها الشمال .. أخذت تلوّح فى عصبية للشاحنة .. بعد أن أشعلت ضوء الإشارات . على مسافة إصبع من الطفل وقفت . اهتزت العربة بمن فيها . جرى الطفل عبر الشارع . اختفى فجأة .. كما ظهر فجأة ، انحرفت الشاحنة بعيداً . بدأت تستردّ أنفاسها الضائعة . تبادلا نظرات قلق .. وغيظ .. وأسى . عالم مجنون .. حتى الأطفال ..؟! مبدأ « المفاجآت » هو قانون هذا الزمان .!!

ــ طفل ملعون .. من أين جاء .؟!

ربت على ظهرها :

ــ أنت .. سوّاقة ماهرة .

أخذت تجفف عرقها :

ــ الإنسان غير قادر على تحمل أخطاء نفسه ، فكيف يتحمل أيضا أخطاء غيره .؟!

عاودت السيارة مسيرتها . أثار الحادث المفاجىء بعض قلق .. وربما قدراً من التشاؤم . عند نهاية الشارع الخالد ، حاول كل منهما .. أن يتناسى ما حدث .!! ومضت العربة فى طريقها ...!!

وصلا إلى منطقة الأهرام . نزلا بعد أن استقرت السيارة بجوار الهرم الأوسط.مشيا صامتين يتجولان ... تذكر أول مرة مارس فيها هذه العادة مع سميرة . ولكن أين هى سميرة الآن ..؟! كان الظلام يزحف تدريجيا . لا يبدو هناك قمر وضوء النجوم شاحب . وصلا إلى الجهة الجنوبية للهرم الثانى . وقفا صامتين كأنهما حجران بجوار الهرم .

ــ فيم تفكر يا قمر الزمان؟

ــ لا شيء .. لا شيء بالمرة .. وأنت ؟

ــ أحاول أن أعرف ماذا تقول النجوم فى هذه اللحظة ؟

ــ ماذا تقول ؟

ــ قل أنت .. أنت تقرض الشعر أحيانا .

ــ ولكن الإلهام قد خانني الآن .

ــ وإذا نظرت فى عينى .. فماذا تظن أنهما تقولان ؟

ــ لست أدرى ...!

كان مشتت الفكر ، ينقل بصره بين النجوم فى السماء ، وآمال .. وقد سافر فؤادها يبحث عن أفق جديد . ومع هذا ظل حريصا على أن يستمر الحوار .

ــ لكنك صاحبة العينين .. فماذ تقول عيناك أيتها الصديقة العزيزة ؟

ــ ألا تعرف ؟

ــ لا .

ــ وتريد أن تعرف .؟

ــ بلا شك .

ــ تقولان .

ـــ تقولان ماذا ؟

نظرت بعيداً ، كأنما تبحث عن عزيز مفتقد . وهو يتأملها فى صمت وبراءة .

ـــ حاول أن تفهمنى ..!! (*)

* * *

(*) مايو ١٩٧٧

إغـــراء اليـــأس

يا وحيدة أنت أختى وابنتى ، أبونا مات ونحن صغار ، تحملتُ المسئولية من بعده والحمد لله ربنا وفقنا . واليوم أريد أن أفرح بك ، لقد مضى أسبوع على الموضوع الذى حدثتك عنه ، لكنك لم تقولى حتى الآن كلمة .

لم تجب .... وجرت دموع العين على الخدين .

قطعت الأم حبال الصمت قائلة :

ــ يا محمد يا ابنى كل البنات بهذا الشكل ، ماذا تعرف فتاة ساذجة مثل أختك وحيدة عن مستقبلها ، أنت رجلنا وما تراه يكون . عباس راجل مبسوط وقادر ، والرجل لا يعيبه إلا جيبه .

ــ لا .. لا أريد أن أتزوج (اضطربت نبرات صوتها) .. كنت سأواصل تعليمى ، لكنك قطعتِ طريقى مرة . واليوم .. لا .. لا .. حرام عليك يا أمى ..

بكت .. ارتعشتْ .. ساد صمت مر ، فى حجرة باردة الاتساع باهتة الطلاء ، ذات شباك كبير تكسرت منه بعض أخشاب ضلفتى الشيش ، وحلت بدلا منها أوراق جريدة . بدا الأثاث قليلا .. متناثرا .. فقيرا .. غير قادر على سد فراغ الغرفة . يوجد كنبتان متقابلتان ، كسيتا بأغطية من قماش الدمور . كرسيان من الخشب المنجد وقد تمزق ورقع القماش

الذى يستر ما بداخلهما عند المقعد . كرسى بلا ظهر ، وُضعت عليه صينية من النحاس بها مجموعة من القلل الفخارية . فى الأرض حصيرة ملونة .

* * *

من يدعى أن القمر فى السماء فحسب .. إذن فمن تكون حبيبتى وحيدة ؟ أكاد أزعم أنها أجمل فتيات مدينة المنصورة . بعض الخبثاء يدعون أن جمال بنات المنصورة جمال تاريخى منذ حملات الصليبيين والفرنسيين ، لكن فتاتى هذه .. معجزة ، شىء خارق للطبيعة .

قطعت شطحات تأمله قائلة :

ـ فيم تفكر يا حسن ؟

ظل على صمته الحالم العابد و لم يجب ، فاستمرت قائلة :

ـ أتمنى أن أركب قاربا ، ونسير فى النيل ، فى ضوء القمر ، ونظل نسير .. نسير إلى آخر الدنيا . ألا تشتاق إلى رحلة مثل هذه معى يا حسن .؟!

كان الاثنان يجلسان وحدهما على سطح البيت الذى نشآ فيه ، فى شقتين متجاورتين . هبت نسمات ليل الخريف محملة بعذوبة منعشة وضوء خافت . ازداد صمته بقدر ما تفتحت شهيتها للكلام :

ـ كنت أتمنى يا حسن . أن أكون أميرة فى كتاب « ألف ليلة وليلة » أسافر إلى بلاد لم يرها أحد ،وآكل طعاما لا يعرفه إنسان ، وألبس فساتين من سندس وإستبرق ، وألف شعرى الطويل بوشاح من القصب محلى بالجواهر والجنيهات الذهبية ، وأسكن فى قصر عال .. عال ، طوبة من

فضة وطوبة من ذهب ، وأركب حصانا أبيض بجناحين ، وأروح بعيدا .. بعيدا . ولكن .. هل تأتى معى يا حسن ؟!

فى سرير كان يزاحم حسن فيه اثنان من إخوته الصغار ، لم يستطع أن ينام ليلتها . كانت وحيدة قد سيطرت على تفكيره سيطرة كاملة ، وكان شوقه إليها قويا . وحيدة فتاة نادرة تجمع بين العقل اليقظ والخيال الرحب ، لم تر العين أجمل منها .. قد ممشوق مستقيم فى كبرياء ، ليس بالنحيل ولا السمين ، متوسط الطول . شعرها أسود فاحم مثل ليل الريف ، طويل يشبه أغصان الصفصاف ، إذا ضفرته يبدو بديعا ، وإن تركته — يسافر حول جسدها — فهو أبدع . وجهها فى استدارة البيضة ولونها . العيون حقل برسيم ، وسط غدير ماء صاف . آه .. إذن ما الذى جعل عيون بنات المنصورة زرقاء ..؟. يا سبحان الله ، حتى الجمال الطبيعى يدعون أنه مستورد ، لا .. لا .. هذه مغالطة تاريخية ، تحتاج إلى بحث لإثبات أن العيون الزرقاء فى بلادنا مصرية .. مصرية مائة فى المائة . حبيبتى — إذا ابتسمت — يبدو فى منتصف الوجه تقريبا غمازتان ساحرتان مثل تلك الانحناءة الطبيعية التى نشاهدها فى ثمر التفاح الناضج . فمها ضيق دقيق رشيق ، الشفة العليا حالمة رهيفة ، بينما السفلى أميل إلى الامتلاء قليلا خاصة عند المنتصف . مهما ضحكت لا ترى أبعد من الأنياب . أذناها صغيرتان مثل أذنى القطة لا تحاول أن تبرزهما أبدا . حين تنظر إلى وجهها تجد شيئا ما ، يذكرك بتمثال رأس نفرتيتى الذهبى

الملون .

حبيبتى إذا نظرت تفتح النوار ، واخضرت الأرض بعد البوار . مثل أسطورة الميلاد يا وحيدة ، ولكن من يدرك سر الخصوبة ؟!

* * *

خيمة كبيرة أقيمت أمام البيت . حسن مات . مات الولـد الحبيب . كان يؤدى فترة التجنيد فى سلاح المشاة بعد أن أتم دراسته الجامعية . حضر حرب يونيو ١٩٦٧ وقطع صحراء سيناء أرض القمر : زحفا وعدوا ، يأسا وأملا ، ليلا ونهارا ، جبالا ورمالا . كم عذّبه وقتذاك مستقبل الوطن ، وقبّل رمال أرض ، لم يعرف متى سيراها مرة أخرى ، وفكر فى أسرته الفقيرة الكبيرة العدد ، التى كانت تحسب متى تنقضى مدة تجنيده حتى يتوظف ويساعدها بمرتبه . ظهر له طيف وحيدة على البعد ، تداخلت فى ذهنه العوالم ، عوالم كل من يحب : الوطن .. الأسرة .. الحبيبة ، تجسد الكل فى الواحد ، والواحد فى الكل . ساعتها تمنى الموت لكثير من البشر وطلب الخلود لمصر .. مصر أم الدنيا .

أحس حسن أن جبال سيناء الكثيرة ، قد تفتتت إلى قطع من الحجارة المدببة تقذف فلول العائدين . بدتْ له السماء خالية من القمر ، وقد تناثرت النجوم هنا وهناك ترسل ضوءا شاحبا . النجوم رغم كثرتها لا تسد مكان القمر . وحسن يدرك أن دورة الأفلاك •

لا تتوقف . سوف يظهر القمر وتتضح معالم الطريق . هبت عليه نسمة من ناحية خليج العقبة .

* * *

ــ أربعون يوما مرت على موت حسن ابن جيراننا ، وأختك بين الموت والحياة . الحاج عباس يريد أن يخطبها من سنة . رغم كل ما تفعل ــ ما يزال الرجل يودنا ، ويملأ البيت بهداياه .. التى لولاها لانكشف حالنا ، ولكن الله يريد لنا الستر .!

ــ وما العمل يا أمى .؟

ــ وحيدة بنت صغيرة وطيبة ، كان حسن أخا لها مثلك تماما ، وكانت تحبه مثلك تماما . ليس مثل حب فتيات اليوم .. لا .. أستغفر الله .

ــ قولى رأيك مباشرة دون لف أو دوران .

ــ نزوجها على خيرة الله من عباس ، رجل شارينا ، والذى يشترى لا يبيع ، بعد أسبوع من الفرح ستنسى ، ستنسى كل شىء ، وستحب عباس يا بنى مثل كل سيدة. لابد أن تحب زوجها . كل شىء يأتى بالعِشرة ، اسألنى أنا .. أنا سيدة وأعرف قلوب النساء .

* * *

الحاج عباس رجل فى الخامسة والثلاثين : ذو قامة متوسطة ــ أقرب إلى الطول الذى يوهم به امتلاء جسده ــ ووجه أسمر صارم . يتسم بهدوء الحركة مما يكسبه هيبة مصطنعة وصمتا مخيفا يحرص على التظاهر بهما دائما . وهو رجل عصامى كون نفسه بذراعه ، فقد

بدأ من الصفر . كان يعمل صرافا فى مديرية الزراعة ، وقد استطاع بعلاقاته المتداخلة والمريبة مع الفلاحين أن يشترى قطعة أرض ويزرعها فاكهة وخضارا . اتسع الرزق وتيسرت الأحوال . ومع ذلك ظل يمارس تجارة الربا . فتح الله عليه ـ كما يقول بعض الأتباع ـ فحقق دينه الثانى بالحج ، وبقى النصف الأول . رأى وحيدة مصادفة تسير فى الشارع مع صديقة لها فبهره جمالها ، وتمنى أن تكون زوجة له ، والحاج عباس رجل إذا تمنى فعل . كلف أحد أعوانه أن يتتبعها حتى عرف كل شىء عنها . أصر .. أن يتزوجها مهما كلفه الأمر ، وبدأ يمشى فى أطول طريق مشى فيه . الحياة كفاح ـ كما يردد دائما ـ وهو مكافح عنيد ، لا يحب أن يُغلب مهما كان الثمن ، وأيا ما كانت الوسيلة !!

* * *

نجا من الموت فى معركة ضارية ، واستشهد بين عجلات القطار فى طريق العودة فى أول إجازة يأخذها بعد الحرب . حسن مات ، وأهل الحى يعزون والده ، فقد كان شابا طيبا ، محبوبا من كل من يعرفه . يا خسارة الورد حين يُقطف قبل الأوان . لقد مات حسن فجأة ، وحين يأكل الموت الشباب يصبح الحزن عليهم نارا حامية . جلس المعزون فى صوان العزاء والكل صامت ، لا صوت سوى صوت المقرىء ، يرتل بصوت مؤثر بعض آيات من القرآن الكريم ...

﴿ لقد كان فى يوسفَ وإخوته آياتٌ للسائلين . إذ قالوا ليوسفُ وأخوه ، أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفى ضلال مبين . اقتلوا يوسف .. أو اطرحوه أرضا ، يخل لكم وجهُ أبيكم ، وتكونوا من بعده قوما صالحين ﴾ .

* * *

نظرت الأم إلى ابنتها وقد أفزعها ما صارتْ إليه من نحول وذبول . من كان يظن أن وحيدة ذات القد الطرى والوجه البدرى والروح الملائكى تبدو مثل ما هى عليه الآن .. بقايا إنسان فى ثوب ؟ ذبلت وحيدة كما الوردة على عودها تذبل . لم تجد من هو جدير بأن يتذوق عطرها ، ويفتح أوراق وردها ، فآثرت أن تظلل مثل فتيات الحور . عليلا صار جسم وحيدة كما أيوب المبتلى كان . حار الأطباء فى مرضها . أصبح القلب ضعيفا متعبا ، والعظام لا يتوقف فيها النشر ، والمعدة لا تنتهى التقلصات والاضطرابات بين أجزائها المختلفة . رفضتْ فى النهاية أن تزور أى طبيب ، معرفة وحدها تعرف أن علتها ليس لها دواء .

— سنتان يا وحيدة يا حبيبتى ، وأنا أنتظر فرحتى بأولادك ، فمتى ستسعدين قلب أمك ..؟!

نظرت إليها الابنة نظرات ساهمة ..صامتة .!

— أين وحيدة التى كانت تقف أمام المرآة أكثر مما تنام على السرير ، وتلبس آخر وأشيك موضة ، التى كانت تغنى فى فرح كل صديقاتها .. فاكرة يا وحيدة يا ما غنيت هذه الأغنية :

يا ابو القميص الملسْ والغَـــزل بـــرانى
مـاشى تهزّ الفـــلك والكُحــل ربـــانى
صدر الحليوة طرّح والطَّـــرح بـــرانى

ابتسمت فى ضعف وضحكت فى رقة ، مما أغرى أمها بمواصلة الحديث والدعابة :

ـــ نفسى أشوفك ترقصين ، لم تكونى تقدرين على التحكم فى أعضائك يا وحيدة .. إذا سمعت صوت الموسيقى ، كنت ترقصين عصفور الجنة .

وجدت الأم ابنتها تُحسن الإصغاء فواصلت الثرثرة ، وأخذت تنتقل من ذكرى إلى أخرى عساها تخفف من أحزانها ، بيد أن الذكرى نقلت وحيدة إلى عوالم أخرى بعيدة ، حيث تذكرت الأب الفقيد الذى طالما دللها وشجعها على كل شيء كانت تحبه . ماردَّ لها طلبا قط .. رغم فقره وقلة راتبه . تذكرت حسن صديق العمر ، الذى ترك فى كل لحظة من حياتها بصمة ، كان يفهمها دون أن تتكلم .. ويعرف داخلها قبل أن تنطق ـــ حتى وهو بعيد ـــ كأنما هناك علاقة روحية بينهما . كيف ينجو من نار الحرب ويموت هكذا كا القط الجبان ..؟ قلبها يحدثها أنه لم يمت ، وإنما قتلا قتل . هناك كثير من أمور الحياة لا نملك فيها أى دليل واضح ، ولكن يظل الإحساس الفطرى شاهدا على صدق ما نشعر به . كم عذبتها هذه المشاعر ، وتخطت بها مرحلة الظن إلى درجة اليقين . كانت كلتا المرأتين تعيش فى عالم آخر ، مختلف تماما . أفاقت الأم من ثرثرتها الطويلة .. الطويلة ، على صوت شهقة مفاجئة ، خرجت من جوف مقروح .. بعدها سقطت وحيدة على الأرض بلا حركة ..!

* * *

الساعة الثانية عشرة مساء . انتهى ليل النهار وتوقف إرسال التليفزيون . جلست وحيدة فى صالة الشقة الواسعة ، أمسكت الجريدة ، وأخذت تتصفح عناوينها الكبيرة فى ملل . من يصدق أن هذه الجالسة فى حزن عميق امرأة فى العشرين من عمرها ؟ سمعت أقداما ثقيلة بطيئة تصعد السلم ، فاشتد خفقان قلبها رغم برودة حركتها . فتح عباس الباب فى صمت . جلس عند أول كرسى وصلت إليه قدماه .

ــ أما زلت صاحية .. لم تنامى بعد ؟!

سكتتْ فما هذا بسؤال ، وإن كان فهو لا يحتاج إلى إجابة .

ــ هل سأل علىّ أحد ؟

ــ لا .

ــ أرسلت لك خمسة كيلو لحم وثلاثة كرشة وأربعة كوارع وبطيختين .

ــ وصلتْ .

ــ إذن نتعشى اليوم كرشة وكوارع ونشرب الشاى المضبوط ، وغدا اللحم .. اللحم والبطيخ .

ــ يمكن أن تتعشى اليوم لحما فقط ، لم أنظف الأشياء الأخرى ، لقد وصلتْ من ساعتين فحسب ، لا أقدر على تنظيفها ، الوقت متأخر ، وأنا ..

ــ لكنى أريد الآن أكل الكرشة والكوارع .

ــ لماذ لا تشترى هذه الأشياء نظيفة مثل كل الناس ، كأنك تتعمد أن أنظف لك الأشياء ... (و لم تكمل) .

ــ كلام الحاج عباس لا ينزل الأرض . المرأة لابد أن تسمع كلام زوجها على طول ، هكذا تقول أمى أطال الله عمرها .

بدأت العاصفة ، وجاء موعد العرض الدرامى الذى لم يكد يتوقف منذ جمعهما بيت واحد ، كأنما يتعمّد ببرودة لزجة إثارتها ، أو أنه قتلا بطيئا يريد لها .

ــ كلْ ما تشاء .. أنا شبعانة وتعبانة .. وسوف أنام الآن .

انتصبتْ واقفةً مثل عصا خيرزانة . جفَّ العودُ يا وحيدة ، وصار سواء من خلف ومن قدّام . ارتفعت يدٌ كما مطرحة الفرن تكون ، وهوت على الوجه الناحل . سقطت على الأرض وراحت فى غيبوبة . سالتْ دماء ضعيفة من فمها مختلطة باللعاب ، وسقطت عدة أسنان مضرجة بدماء أخفت لونها الأبيض .

كان الغيظ يشتعل فى صدره إزاءها ، لكن الحدث المفاجىء لم يمكنه من تفريغ غيظه . تحيرّ برهة ، لكنه سرعان ما حملها كما الريشة ... وأرقدها على سريرها الخاص . هكذا ينامان كل فى سرير كما لو كانا غريبيْن ، حتى إنها تستحى بشدة أن تخلع ملابسها أمامه . بقدر ما أخافه الدم للحظة ، إلا أنه كان يطمئنه من ناحية أخرى على أنها ما زالتْ على قيد الحياة . توقف النزيف ، لكنها لم تفق بعد . كانت هذه فرصة طيبة لكى يقبلها ، فلم تكن تسمح له حتى بالسلام عليها . كانت بشدة تأنف منه ، وتكره رائحته ، وطريقته فى الأكل ، وعادات نومه . سمعت كثيرا

عن الخنزير ، لكنها لم تره أبدا ، ما عادت تتخيل الخنزير إلا على صورة ذلك الرجل .. عباس .!!

* * *

فى الساعة السادسة مساء كل يوم ، يقوم قطار من القاهرة فى طريقه إلى المنصورة ودمياط يسمى « قطار العساكر » ، لأن جنود الجيش يشكلون الأغلبية الساحقة من ركاب عربات الدرجة الثالثة وطرقات الدرجة الثانية . مع رحلة المساء يتصاعد من الركاب — رغم برودة الجو — العرق ، دخان السجائر ، الأحاديث المتداعية حول الجيش والحقل والسفر والعودة والأقارب والأحباب . وقف حسن قريبا من باب العربة الأخيرة فى القطار ، تدور فى فكره خواطر قلقة . كان يشد أذنيه أحيانا حوار بعض الواقفين الملتصقين به ، فيتتبع أحاديثهم المكررة حول طوابير التدريب ووجبات التعيين ونظام الإجازات ، لكنه سرعان ما كان يحس باختناق شديد ، فيمط رقبته ليقرب رأسه من الباب ، ليشم بعض الهواء المنعش . ظهر له طيف وحيدة يرتدى ثوبا أسود ، فأحس برعشة مخيفة ، انتفض لها جسده بشكل واضح . لفت نظر أحد الواقفين بجواره فقال له :

— أنت تعبان يا دفعة .. يلزم خدمة ؟

— ألف شكر يا دفعة .. أنا بخير .

توقف القطار عند طنطا وأخذ الباعة ينادون هنا وهناك على السجائر .. الكازوزة .. السميط والبيض .. حمص السيد البدوى .. حب العزيز اللذيذ . نزل حسن يشترى لوحيدة — كما هى عادته

دائما ــ كيسين من الحمص وحب العزيز . انتظر على الرصيف ، و لم يشأ أن يركب إلا بعد أن تنتهى حركة الجزر والمد عند الباب . بدا فى زيه العسكرى وسيما أنيقا ، صلب العود متناسق الأعضاء ، كأنه تمثال فرعونى . كان جسده الهزيل ووجهه الشاحب يعكسان جراحا غائرة داخل نفسه رغم هدوئه الظاهرى .

بدأ القطار يصفر بشدة كأنه صوت نادبة . أخذ ، أخذ حسن يستعد لصعود سلم العربة . وسط الظلام وحركة الناس الشاحبة دفعه من الخلف وهو يهم بالصعود شخص ضخم الجثة ، لم يره لكنه أحس بقوة حركته المتعمدة . كان يزاحمه .. ويضربه .. ويلعنه .. كأنه يطعنه ، ثم دفعه دفعة قوية مستميتة . لم ينتبه أحد فى الزحام والظلام إلى ما حدث ، فقد تم الأمر كله فى لحظة سريعة مثل البرق . سقط حسن مثل الحمامة تحت عجلات القطار . اختفى شبح الرجل الذى كان يزاحمه وابتلعه الظلام البارد ، بينما أحد الباعة يأتى صوته من رصيف بعيد وهو يردد :

حمص .. حب العزيز .. مدد يا سيد يا بدوى ..

* * *

تمدد الحاج عباس فى ارتخاء على سريره ، يرقب زوجته العذراء المستغرقة فى نومها ، وهو ينفث دخان سيجار محشو بالحشيش . كان يتأمل من خلال الدخان عمرا مشوها وحياة خربة . لقد عمل وجاهد بشرف وغير شرف ، ليكون موظفا غنيا وزوجا لأجمل امرأة فى البلدة .. وها هو حاصل الجمع والضرب . لقد سرق ونهب كثيرا ، لكنه يحس اليوم أن ما يفقده شيء لا يقدر ولا يعوض . بدا لعباس أن هناك أمورا فى

الحياة ، لا يعرف لها تفسيرا واضحا .. هذا الكون حقيقة مؤكدة أم وهم كبير . هل يستطيع المرء أم يحصل بالقوة على كل ما يريد ؟! القوة قد تمكن من الاستيلاء على الجسد فهل تقدر على أن تجعلك تمتلك الروح ..؟! هل هناك فى هذا العالم عدالة اعتبارية ، تجعلك تحس بأنك قد تكون الجزار والضحية فى آن واحد ..؟! لا يدرى عباس لهذه الأمور تفسيرا ، كما لا يدرك ما الذى جعل هذه الأفكار المتصارعة تدور فى ذهنه المرهق .

تهاوى رماد كثيف من السيجارة على ملاءة السرير البيضاء ، فضايقه المنظر رغم عدم حرصه على النظافة . بدا متوتر الحركة مهتز الأعصاب محمر الوجه جاحظ العينين ، تقلصت أمعاؤه بما شربت من خمر ، وضاقت رئتاه بما حوت من دخان مخدر .!

أشعل سيجارة أخرى من نفس السيجارة ليقتل توتره وأرقه . مع الدخان الملتوى ظهرت له صحيفة أحواله السوداء . كان موظفا فقيرا أصر على الغنى السريع ، فصار الربا والاختلاس أقصر الطرق . كان يمكن أن يتزوج أى فتاة غير وحيدة التى رفضته ، لكن إصرارها أغراه بالعناد والتصميم .

بدت الدنيا لعينيه مظلمة ضيقة مثل عين الإبرة ، تجمعت فيها أشباح كل من اعتدى عليهم ، ترقص رقصات وحشية . ضاقت أنفاسه مع تزايد إحساسه بالفشل والخيبة . أحد الأشباح مد يده ففقأ إحدى عينيه ، ثم جاء آخر فشق البطن بسكين حاد ، وأخرج الكبد يقطر دما حارا ، وبدأ غيظا يأكله .

صرخ عباس .. ثم سعل .. تأوه .. تجشأ .. انكتم الدخان فى صدره . مذعورة استيقظت وحيدة فتابعت حركاته الجنونية فى صمت خائف . أحس بأنفاسه تضيق فخلع جلبابه .. أخذت تضيق أكثر .. فأكثر .. مزق فانلته وكشف صدره عاريا للهواء . انتفضت وحيدة مذعورة تكلمه .. لكنه فى عالم آخر كان . تعالى شخير أنفاسه . جحظت عيناه كالمختنق . راودته رغبة مكبوتة فى التجشؤ . أخذ يشد شعره فى عصبية ، كأنما يريد أن يسقط صداعا رهيبا فى رأسه . أحس رغبة شديدة فى التقيؤ والتبرز فى ذات اللحظة . عدا بسرعة شيطانية إلى الحمام .. ما أن وصل إليه حتى تزحلقت قدماه فوقع مغشيا عليه . كما ولدته أمه — عريانا — سقط .! (*)

(*) أبريل ١٩٧٧ .

الجنــازة

أحس سعادة غامرة وهو يغادر العاصمة إلى قريته الحبيبة . فى الطريق ـــ من خلال المقعد الأمامى لسيارة الأجرة « البيجو » ـــ بدت نسمات الريف الخضراء الحنون . عاودته نشوة الرجل ، حين يتذكر مـرح الطفولة . سوف يغسل نفسه من كل الهموم اللزجة التى أصابته بها المدينة .. سيريح أعصابه .. سيطهر رئتيه .. سيذهب إلى الغيط ، يأكل الخيار .. والطماطم .. يشوى الذرة الخضراء على حطب القطن . سوف يخلع البدلة والحذاء .. يلبس الجلابية والبلغة .. يجلس وسط الأهـل والمعارف .. يحدثهم عن قلق المدينة وهمومها الدائمة .. ويكلمهم عن السياسة والصحافة ، لكنه سوف يختم حديثه معهم هذه المرة بالذات .. بأن القرية ـــ مهما كانت الأحوال فيها ـــ جنة نقية إذا ما قيست بالمدينة .. وزيفها .. وتعبها . نزل من السيارة أمام كوبرى القرية ، الذى يعد شبه نادٍ دائم ، لا تنتهى حلقات التجمع حوله . من المشاهد المألوفة بالقرب من هذا الكوبرى : منظر مسافر ينتظر القطار أو الأتوبـيس وبعض الأهل أو الأصدقاء يودعونه .. مجموعة من تلاميذ المدارس وطلبة الجامعات يدور حديثهم دائما حول السياسة والفكر .. والرياضة .. والحب ، بعض الفلاحين الذاهبين إلى الحقول أو العائدين منها يتشاورون فى أمورهم الخاصة ، وقد أوقف أحدهم بجواره حماره أو بهيمته . بالقرب من الكوبرى نفسه ـــ الذى يمر على ترعة تفصل بين القرية وطريق السفر إلى المدينة أو الذهاب إلى الحقول ـــ هناك علامتان مميزتان : الأولى مقهى

على الزملوطى، الذى يبيع كل ما خلق الله من مكيفات وأدخنة ليل نهار ، والثانية الموردة التى ما زالتْ نساء القرية وفتياتها يترددن عليها ـــ رغم دخول المياه النقية إلى البلدة ـــ لغسل الملابس وأدوات الطعام وأخذ الماء لأغراض غير الشرب . غير أن كل هذه الأماكن .. الكوبرى .. الموردة .. المقهى .. بدت خالية شاحبة الحركة . لا يوجد سوى بعض أطفال صغار ، يسيرون هنا وهناك .. عن قرب وعن بعد .. كاد يسألهم .. يتحدث إليهم ، فهو شديد اللهفة للقاء القرية وأهل القرية . لقد جاء بعد غيبة طويلة .. وقد بدت القرية فى خلده مثل « يوتوبيا » حالمة مليئة بالسعادة والبهجة . صحيح هناك فقر وجهل وتخلف .. لكن يبقى دائما لأهل القرية النقاوة الغضة .. والبراءة الساذجة .. لا تكلف ولا نفاق .. فالكل يعرفون بعضهم بعضا . اشتاق أن يستمتع بفراخ وفطير أمه .. بشقاوة أبناءإخوته .. بحكايات جاره العجوز الحاج عوض الله ، الذى عاصر الحرب العالمية الأولى فى بلاد الشام .. وصحب رحلة الجيش المصرى إلى السودان قبيل مقتل السردار الإنجليزى .. وما زالت عنده ذكريات حزينة عن ذلك .. وعن القرية كلها . يا نسمة الريف الطيبة .. هبّى .. هبّى!يا ذكريات الطفولة السعيدة .. تعالى .. تعالى .! تجاوز الكوبرى .. وسار فى الطريق الموصل إلى القرية . أدهشه أن الطريق شبه خال من المارة ، عاوده تساؤل طالما فكر فيه وهو صبى : من الذى صمم بناء قريتنا وجعل المقابر أول شىء تلقاه وأنت فى الطريق إليها .؟! ما كاد ينعطف به الطريق حتى قابلته القرية كلها .. فى موكب رهيب مهيب . الجميع يسيرون كأنهم بنيان مرصوص ، يتحرك فى إيقاع بطىء ..

بطىء .. منتظم . لكن هدوء المسيرة كان على النقيض تماما من الأصوات المختلفة التى تصدر عنها .. عالية .. حادة .. مخيفة . كانت هناك أصوات نسائية .. نادبة .. صارخة .. زاعقة .. باكية فى حرارة حارقة . بدأ يسمع عن بُعد قريب .. أو قُرب بعيد تعديدهن الموقع ، كأنه مسامير ساخنة تخرق القلب .. كانت النادبة تعدد .. وبقية النساء يرددن وراءها :

أحّيـه على عـدم الولـد أحّيـه عـلى عـدم الولـد

أحيـه بمـرار أحيـه .... أحيـه

نقـىّ واختـار أحيـه .... أحيـه

وخـد النـوّار أحيـه .... أحيـه

كانت رغبته فى الفرحة مثل غشاء البيضة .. تمزقت مع أول صرخة ، فعاد إلى بئر الحزن العميق فى داخله . بدأ الموكب يقترب منه وهو يتقدم إليه . لم يدر ماذا فعل ..؟ و لم يسأل أحدا ماذا حدث ..؟ و لم يدر هل سلم على أحد أم لم يسلم .. فهو لم يأت إلى القرية منذ سنوات خمس . لم يعرف من الذى مات على وجه التحديد .. رجل .. امرأة .. كبير .. صغير .. قريب له .. غير قريب .. لا يدرى .. ولا يظن أنه سأل أو همّ بأن يسأل . المهم أنه وجد موكب جنازة فمشى فيه ..! بدا بشعره الأشعث ووجهه المترب وملابسه المبهدلة ، وعلامات الحزن والإعياء المسيطرة عليه ـــ بدا فى هذا كله .. كأنما جاء خصيصا من أجل هذه المناسبة ، بل إنه ليبدو ـــ حقيقة ـــ لمن يقارن بينه وبين السائرين حزنا أنه الوحيد .. صاحب المأتم والمبتلى بالفجيعة . نظر إليه بعض الفلاحين الذين

يسيرون بالقرب منه ، وحملت تساؤلاتهم الصامتة سؤالا .. لم ينطقوه .. وإنْ قدروه .. وهو أى علاقة حميمة كانت تربط أهل المتوفى بالأستاذ سعيد مؤنس المحرر فى صحيفة « الحرية » ؟ مشى فى البداية فى أول الموكب أمام النعش .. قريبا منه ، كانت هناك جوقة من الفقهاء وصبيانهم . فى صف الفقهاء برز الشيخ باز البسيونى وهو فقيه كفيف يدير أكبر « كتّاب » فى القرية ، ثم الشيخ سيد جعفر .. شبه كفيف ومقرىء البيوت فى الصباح الباكر ، ثم الشيخ أمين الدمياطى .. فقيه فارع الطول ممتلىء الجسم ، له عين واحدة حادة الرؤية بحيث تجعله وهو ماش فى الطريق قادرا على أن يرى من هم على سطوح الدور ، وأخيرا هناك الشيخ عبد الجليل الملطاوى .. فقيه ومزارع ومؤذن وصانع سلال .خلف هؤلاء الفقهاء الأربعة يوجد سرب من الصبية الذين يتعلمون عندهم فى الكتاتيب . وقد مضى هؤلاء الفقهاء يرددون — فى صوت واحد — أبياتاً من بردة الإمام « البوصيرى » .. والصبية يكررون بعدهم بيتا واحدا على نفس الوزن والقافية لا يغيرونه أبدا . أثناء السماع إليهم عاوده سؤال قديم ، لم يستطع أن يعرف له إجابة أيضا : من الذى سنَّ هذه العادة — عادة قراءة شعر البوصيرى أمام كل ميت — فى قريتنا يا ترى .؟!

قطع الصمت الشارد صوت الفقهاء .. وبطانتهم من الصبية ينشدون :

والنفسُ كالطفلِ إن تهمله شبَّ على
حبِّ الرضاعِ ، وإن تفطمْه ينفطمِ
مولاى صلِّ وسلّمْ دائمًا أبدا
على حبيبك خيرِ الخلقِ كلهمِ
فاصرفْ هواها وحاذرْ أن توليّه
إن الهوى ما تولى يُصْمِ أو يَصِمِ
مولاى صل وسلم دائما أبدا
على حبيبك خير الخلق كلهمِ
كم حسّنتْ لذةً للمرء قاتلةً
من حيثُ لم يدرِ أن السمّ فى الدسمِ

لمحه عبد المنعم صديق طفولته فجاء وسلم عليه . مشى بجواره محترما صمته الحزين . سرح فى بحار الفكر وسط الموكب الصاخب ، تذكر .. تذكر .. نجلاء .. حبيبته السابقة .. تلك الفتاة الذكية الطموح .. الممتلئة حماسة وفتوة .. تبناها منذ أن جاءت إلى الجريدة التى يعمل فيها « جريدة الحرية » ، بدأ يدربها على أسرار المهنة وخفاياها . حملت عنه كثيرا من فكره واستوعبت — سريعا — إطار تجربته الإنسانية والصحفية . عرّفها بكل من يعرف .. رفعها إليه فارتفعت .. وقربها منه فاقتربت . أحس معها فرحة الأستاذ حين يجد تلميذا نابها . كانت تعرف معه لذة النجاح ، الذى يبلغ درجة الفتح . عشقته .. وعشقت معه المهنة .. والجريدة .. والحياة . كانت تراه مثالا فذا .. لوضوح الفكر .. وصلابة الرأى .. وبُعد النظر .. للتواضع المتكبر .. والتسامح القادر . كانت تجلس

منه جلسة المريد إلى القطب الصوفى . طالما قالت له عن اقتناع وفرحة :
أنت أستاذى ومعلمى وحبيبى .. لولاك لما عرفت الحياة كما ينبغى .. لا ..
لولاك لما كنت أنا نجلاء التى كنت أحلم بها .. لن أعرف للحياة طعما
بدونك .. إذا لم تخطبنى فسوف أخطبك .. سأتزوجك .. سأتزوجك
حتى غصبا عنك .. وإذا رفضتَ سوف أدخلك بيت الطاعة .. وتكون
أول زوج ناشز عرفه تاريخ الحب . لم يقبلها سوى مرة واحدة .. ثلاث
قبلات متتالية بالإكراه .. ما زال طعم القبلة حلوا فى فمه حتى اليوم .
غريب أمر الحب .. وطعم القبلة . القبلة .. ليستْ شيئا .. لكنها فى الحب
علامة كل شيء . قالت له ذات مرة وهى واقفة أمامه تعبث فى شعر
صدره : لا تحاول أن تغتصبنى .. لا أحب الإكراه .. وإلا كرهت ..
أحب الشموخَ .. واحترامَ السدود .. لا تتعجلْ ، أنت هادىء دائما ..
فلم تتعجل الأمور .. أليس شعارك الذى حفظته عنك « لا تقطف
التفاحة إلا بعد أن تنضج » ؟! خسارة .. وألف خسارة لقد أحبها فى
ثلاث سنوات وضاعت منه فى ثلاثة أيام . خطفها منه زميل قادم من
الأقطار الشقيقة ، يملك سيارة « مرسيدس » وحسابا فى البنك الأهلى ،
يدخن السجائر « الرثمان » التى يشعلها بولاعة « رونسون » مذهبة ،
يعرف الجديد فى موضة الرجال والنساء . ما زال يرن فى أذنه تعليق ساخر
على ما حدث له من أحد أصدقائه العابثين: ليس بالحب وحده يحيا
الإنسان .. يا حبيبى .! أفاق من رحلته فإذا هو قد صار فى آخر الجنازة ،
والنساء فى أمواج سوداء يصحن نادبات ويلطمن الخدود فى حرقة :

ابكى بعزمْ وحيلْ   يا معددة نُوحى
ع اللى جرى بالليل   يا معددة نوحى
على مجارِى النيل   يا معددة نوحى
تعالوا يا غايبين   يا معددة نوحى
شبّاك الهوى بالطين   يا معددة نوحى
العمر يتنّه حزين   يا معددة نوحى
يا حبيبتيى   يا دهويتيى

أحس أن الغناء يُشجيه ، والحزن يُنسيه ، فظل يتابع من بعيد منظر نساء القرية ، وقد لبسن سوادا فى سواد .. وتعممن بالطرح ، وأخذن يلطمن الخدود .. يمشين حافيات .. يسرن فى حركة موقعة رتيبة . الندابة لا يكاد يفرغ محفوظها ، والنسوة يرددن وراءها دون ارتباك ، كأنما قد أخذن جميعا دورة تدريبية راقية فى نظم التعديد والندب .. هل هناك معلم ينطق قلب الحجر مثل الحزن ؟! أخذ يتابع شغفه بذلك الغناء المشترك بين الندابة والنسوة :

مين مات جمالها   يا عينى يامه .. يا عينى يابه
ع اللى يموت جملها   يا عينى يامه .. يا عينى يا به
تعيش حزينةْ لم ينعدلْ حالها   يا عينى يامه .. يا عينى يابه
وتشرب عكار الطين لخلخالها   يا عينى يامه .. ياعينى يابه

لماذا المصريون بالذات أكثر شعوب الأرض قاطبة حزنا على الميت .؟! لازمته حيرة التساؤل ، ولم يدر أيضا بما يجيب على نفسه . راودته فكرة غريبة .. مفاجئة .. أصر على تنفيذها . همَّ فى سيره حتى لحق بالنعش ،

صار على بعد خطوة منه . أخذ يزاحم المتزاحمين حوله .. لا يدرى كيف استقرت يد النعش الخشبية على كتفه . أحس أنه يفعل شيئا جديدا لم يمارسه طيلة حياته أبدا . أيها الميت .. يا من كنت حيا .. نحن الآن نودعك .. نسير معك . فقط بينى وبينك فاصل مادى رقيق دقيق .. كفن من القماش ونعش من الخشب . و .. لكن الآن أنت فى عالم ونحن فى آخر . الكل حزين على فراقك .. فهل أنت كذلك .؟ سوف ينساك الكل بعد أن يسدوا عليك باب القبر بالطوب والطين .. وتعود يا مسكين إلى حفرة مظلمة موحشة .. ماذا ينتظرك .؟ قل يا أخى .. أو يا أختى .. المهم أن تتكلم . سوف تُلبس ملابسك .. ويؤكل طعامك .. وتؤتى حرماتك .. وتسكن ديارك .. فنحن الأحياء ، لا يموت أحد منا من أجل أحد . ولكن .. أنت .. أنت الآن .. بين بين .. نعم بين العالمين أنت .. لم تغادر الدنيا .. ولم تدخل القبر . تحدث إذن .. قل لى .. أعاهدك بشرفى الشخصى .. وشرفى الصحفى .. إننى لن أقول لأحد شيئا .. سرك فى بئر . أرجوك .. ألا تسمعنى .. تحدث .. تكلم .. هل أنت مستريح الآن .. هل العالم الذى إليه أنت سائر . خير من العالم الذى كنت فيه صائرا .؟ هل سوف يختفى عندكم الحقد والحزن ..؟! هل صحيح ستموت الرغبة .. وينتهى الخلاف .. ويزول الاختلاف .. وتسود العدالة والرحمة ..؟ هل الفقراء والمظلومون أمثالنا لهم عندكم مكان طيب ومقام كريم .. أم سيكتب علينا الغلب هنا وهناك .؟! عجيب ، وبينى وبينك شبرين لا يزيد .. ومع ذلك يبدو أنك لا تسمعنى أو .. لا تريد أن تسمع .. يا أيها العزيز الميت .. يا من كنتَ حيا ترزق ..

أرجوك تكلم .. قل .. لن يسمعنا أحد . إنذار أخير إذا لم ترد فلن أتجشم مسئولية حملك على كتفى .. هيه .. ماذا أيها العزيز الراحل ؟ انتزعه من عالمه الداخلى صوت الفقهاء الذين أصبح قريبا منهم :

واخشَ الدسائسَ من جُوع ومن شبعٍ
فربَّ مخمصةٍ شرٌّ من التُّخَمِ
مولاى صل وسلم دائما أبدا
على حبيبك خير الخلق كلهمِ
واستفرغِ الدمعَ من عينٍ قد امتلأتْ
من المحارمِ والزمْ حميةَ الندمِ
مولاى صل وسلم دائما أبدا
على حبيبك خير الخلق كلهمِ
وخالفِ النفسَ والشيطانَ واعصهما
وإن هما محضاكَ النصحَ فاتّهمِ
مولاى صل وسلم دائما أبدا
على حبيبك خير الخلق كلهمِ
ولا تُطعْ منهما خصمًا ولا حكمًا
فأنتَ تعرف كيدَ الخصمِ والحكمِ

الحاج مصطفى أخوه الكبير رجل طيب ، لا يدرى كيف اكتشفه وسط زحام خواطره . سلم عليه وتبادلا نظرات شوق مختصرة سريعة . سارا متجاورين فى الجنازة ، وقد علق أخوه يده فى يده ، بينما تدلت من اليد الأخرى مسبحة صفراء من الكهرمان ، أخذ يسقط حباتها فى حركة

منتظمة . يا له من موكب جليل جدير بالتأمل — موكب المسيرة المقدسة .. مسيرة الموت . الموت والميلاد معجزتان أزليتان من معجزات الحياة والوجود ، لم يستطع أحد حتى الآن أن يخط فى سفرهما حرفا .. حرفا واحدا . لا شيء يسوّى بين الظالم والمظلوم .. العالم والجاهل .. المؤمن والكافر .. الغنى والفقير .. الجميل والقبيح .. اللطيف والكثيف .. الحق والباطل .. سوى هاتين الحقيقتين المرعبتين .. الميلاد والموت . أطل الشيخ أمين الدمياطى فى طوله الفارع وقال بصوت حاد مجروح: يا عباد الله .. وحدوا الله .. كل من عليها فان .. ولا يبقى إلا وجه الديان . أخذ الجميع يحوقلون ويستغفرون فى عبارات متداخلة حزينة .. يا خفى الألطاف ، نجنا مما نخاف . لم يستطع أن يتناسى وسط ما هو فيه أصداء المناقشة العاصفة بينه وبين رئيس تحرير جريدة « الحرية » أول أمس . دخل عليه مكتبه الوثير الكبير ، حيث .. جهاز التكييف .. المروحة الملونة .. عدة تليفونات داخلية وخارجية .. وراءه مكتبة فخمة غير ضخمة .. دولاب من خشب الورد .. عن يمينه سكرتيرة حسناء جذابة ، تلبس باروكة مثل لبدة الأسد ، تصلح لأن تكون ممثلة سينما .. ذات شكل يصلح صورة للدعاية لأدوات التجميل . قال له : إما أن أقدم استقالتى .. أو أتوقف عن الكتابة . كيف أكتب الآن .؟ لقد انتهت جريدة « الحرية » التى أسسناها بالفكر الحر والرأى الملتزم .. أين ما كنا نقدمه .. التحليل الإخبارى .. الموضوعات الفكرية .. المقالات الرصينة .. المناقشات الموضوعية ، لأحداث العالم وتأثيرها على وطننا ومنطقتنا . كل هذا يا أستاذ ضاع .. راح ، أصبحنا لا ننشر سوى

بعض الحوادث الاجتماعية .. وأخبار نجوم السينما والكورة .. الكلمات المتقاطعة .. حظك اليوم .. بريد القراء الذى يؤلفه أحد المحررين . لا .. لا .. لقد انتهت « الحرية » .. وعلىّ أن أبحث عن جريدة أخرى ، أو من الأفضل أن أبحث عن عمل آخر . طال الحوار .. و لم يلتقيا .. كانا مثل نقطتين متباعدتين لكل منهما امتدادها الخاص . أخيرا قال له : خذ إجازة مفتوحة .. أرحْ أعصابك .. وبعدها نتفاهم ، وسوف أحترم قرارك فأنت تعرف مدى تقديرى لمواهبك وتمسك الجريدة بك . لم يدر أين ذهب عنه أخوه الحاج مصطفى ، ولا كيف عاد ثانية إلى مؤخرة الجنازة بالقرب من صفوف النساء .. وهن يرددن نادبات :

خُرج النجف اتحلّ .. خُرج النجف اتحل   آهين يا ولديبى
والشعر الاصفر ع الخشب اتحل   آهين يا ولديبى
خرج النجف حلّوه .. خرج النجف حلّوه   آهين يا ولديبى
والشعر الاصفر ع الخشب لمُّوه   آهين يا ولديبى

أحس أن هناك مطارق حادة مدببة ، تدقُّ رأسَه وقلبه . على الأرض شوك ، وفى السماء ضباب ، وعلى وجوه الناس تراب . ماذا حدث لك يا سعيد لقد كنت رأسَ المتفائلين .. ما ضعفتَ يوما ولا استسلمت ؟ أين صلابتك الفكرية وعزيمتك الصخرية ؟ أحس بشوق جارف نحو أمه العجوز الطيبة التى تصرّ كل يوم على شراء نسخة من جريدة « الحرية » ، رغم أنها لا تقرأ . الأم فقط هى الإنسان الوحيد .. الوحيد الذى يعُطى .. ويعطى دون حدود .. ودون أن يطلب رد الجميل .. ولا حتى مجرد الاعتراف به . أمه رغم طول العمر وكثرة الآلام ما زالت قادرة على

العطاء وغرس الثقة وبعث الأمل . فجأة وجد الرجال صفين متناظرين بجوار المقابر .. بينما توقفت النساء فى حلقة دائرية .. وما زال صوتهن يصل من بعيد مرددا غناءهن الحزين .

توسط النعشُ الطريقَ وحده . صاح الشيخ البدراوى إمام مسجد القرية فى صوت عريض مؤثر : يا عباد الله .. يا عباد الله .. الصلاة على من حضر من أموات المسلمين .. أثابكم الله . وقف الإمام قريبا من رأس الميت تجاه القبلة ، وخلفه جماعة من المصلين .. وبدأت شعائر صلاة الجنازة .

أخذ سعيد يتأمل النعشَ إلى أن انتهت الصلاة ، ثم سار فى لهفة وراء الميت يتابع خطواته الأخيرة . كان يشعر أن كل حفنة تراب يدوس عليها قد تجمعت فيها أشلاء مختلفة لجثث قد تحللت . تراب المقابر ذو شكل غريب .. بين الأصفر الغامق والبنى الأدهم .. ناعم هش .. مبقع ، كأنما صُبت عليه قناطير من زيوت ودهون مختلفة . فى أماكن متناثرة .. على الطرقات .. أو على أبواب المقابر .. أو فى مؤخرتها تكثر حشائش الحلفا المتوحشة الكثيفة ذات الأعواد المستقيمة الحادة .. تغذت من أجساد البشر . وسط المقابر الفقيرة بدا قبر حسين باشا أبو سمرة ، أحد زعماء حزب الأحرار الدستوريين السابق .. بدا غريبا .. شاذا .. لروعة بنائه الهندسى وبوابته الخشبية المزركشة وأوانى الزهور المنسقة التى ما زالت تحيط به — رغم مرور أربعين عاما على وفاة الباشا . منظر المدفن الفخيم يجعلك تكاد تشك أن هناك بيتا جميلا أعد للسكن وسط هذه المقابر الباردة . تزاحم الناس أمام قبر ، فتح بابه مثل فم الغيب المجهول ،

واللحاد يسوى التراب فى داخله ، يجمع بقايا الجثث السابقة فى جانب ، ما يكاد يمسك قطعة عظام أو خرقة من كفن ، حتى تتساقط وتتطاير رماداً هشا . بدأ يسوى الأرض زحفا بيديه . كم دفن ذلك اللحاد .. العجوز الضخم الأعور ــ رمضان أبو الغيط ــ من موتى ، ومازال يؤدى عمله بمهارة فائقة دون أن يساروه شعور ألبتة بأنه يتعامل مع أجساد بشرية . إنه يتحرك فى خفة مثل البناء الذى يتعامل مع قوالب من الطوب . وارب مجموعة من الرجال غطاء النعش الخشبى بعد أن أزالوا عنه ملاءة مزركشة بمربعات زرقاء مثل النيلة كانت تغطيه . فاحتْ من الجثة الطالعة رائحة الصابون المعطر وكولونيا البنفسج . كان الكفن ذا لون أخضر فاقع له عدة طبقات قد أحكمت خياطتها . رغم سرعة الحركة استطاع سعيد أن يلمح كيف تجمدت الجثة ، وتمددت كأنها لوح من الخشب . فى البداية استقبل اللحاد رأس الجثة ثم دفع الحاملون بقية الجسد فى سرعة البرق . الواقفون أمام القبر يرددون : بأمانة عليها .. بأمانة والنبى !! ثمة عيون تشاهد الموقف فى صمت .. وأفواه تصيح .. دعاء .. نداء . استغاثة .. بكاء .. رجاء .. ارتعاشة . انتهى اللحاد من عمله واستقرت الجثة فى مثواها الأخير ، وبدأ يضع الطوب والطين حتى يغلق القبر على الميت ، ويفصل بين عالم الحياة والحركة وعالم الصمت والرهبة ، بين عالم البشر بكل ما فيه .. وبين عالم آخر بكل ما نظن فيه . ما زال بعض أطفال صغار من أهل الراحل لا تكاد تطاوعهم قلوبهم على مغادرة المكان وعلى العودة إلى بيت لا يجدونه فيه . يبدو أن البشر لا تظهر قيمتهم إلا بعد رحيلهم ، كما نكتشف أهمية القمر

فى ليلة مظلمة . جلس بعض الفقهاء أمام القبر يقرأون « سورة يس » ويطلبون من الله أن يهبَ ثواب القراءة رحمة ونورا على روح نعيمة بنت جمالات . تذكر سعيد فى هذه اللحظة بعض ما كان يقال وهو صغير ، دون أن يهتم به : فى العالم الآخر لا يُنادى الموتى بأسماء آبائهم فمن يعرف الأب الحقيقى سوى علام الغيوب .. لذلك يسمى الناس فى القبر وفى يوم القيامة باسم الأم . كما تذكر ـــ ما كان يستغربه فى صباه عن عادة تلقين الميت ، وها هو الآن ينبهر له نفس انبهار الطفولة ودهشتها البريئة التى تحار فى ما لا تستطيع له تفسيرا أو تأويلا . الفقهاء يرتلون القرآن بعد الدفن مباشرة ، ثم يشرعون فى تلقين الميت ، حيث أن ملكى الحساب« منكر ونكير » سوف يأتيان ليحاسباه على ما فعل فى حياته الأولى .. وبعد السؤال يعلقان فى عنقه قائمة حسابه ، لذلك يحاول الفقهاء أن يذكروه بما يمكن أن يكون قد نسيه من أركان الإيمان بالله ورسوله ودينه ، حتى يضعه الملكان فى زمرة عباد الله الصالحين الذين سوف يدخلون الجنة . نظر حواليْه فإذا كل الناس قد عادوا ليعزّوا أهل الميت الذين ينتظرون فى صف واحد ليسلموا على المعزين . قادتْ سعيد رجلاه إلى اتجاه مغاير ، يمشي فيه وحده ، وصورة المسيح والصليب لا تفارق ذهنه . كان يحس أن روح السيد المسيح تنظر إليه فى عطف

وتدعو له بالنجاة . استقر وحيدا عند قبر والده . جلس أمامه فى انكسار شديد . أخذ يتأمله فى صمت . أدرك أن علاقته بأبيه لم تكد تنتهى بعد ، فشرع يطرق باب قبره بشدة قائلا : لماذا جئت بى إلى هذه الدنيا يا أبى ..؟!(*) .

(*) كتبت فى مارس ١٩٧٧ — نشرت فى مجلة « الكاتب » — القاهرة عدد سبتمبر ١٩٧٧.

مرحباً .. أيها العالم المجهول

وماذا بعد يا عائشة ؟ فكرى جيدا .. الأمر ليس سهلا .. أنت فى لحظة حرجة .. إنك تفكرين فى الخروج .. فى السفر .. بعيدا ، ولابد أن يدرك المرء بعض ما يتمنى . لا حياة بلا حلم .. ولا حلم بلا إرادة .. وقد أردت !

بدأ الصبح يتنفس ، إنها لحظة جديرة بالتأمل ، لحظة إشراق النهار بعد الليل ، أشعة السحر زحفت متأنية تؤذن بالميلاد الجديد . إنه مشهد لا يوصف .. فمن يدعى أنه قادر على ترجمة إحساسه بالمكان ، قد نعى الزمان أحيانا لأننا نعيشه ، أما المكان فالأمر مختلف .. لهذا السبب كنتُ متفوقة فى دراسة التاريخ عن الجغرافيا . أقف الآن فى شرفة شقتنا العالية .. النيل يبدو هادئا ، ما زال الكون ساكتا بلا حركة . الأفق بعيد بلا نهاية . الأشجار صامتة تصلى فى صمت مهيب . شق الصمتَ بائعُ لبن قروى مضى — وحده فى هدوء — يغنى :

الطير دا اللى ع الشجر عمّال بيبكى ليه

بكى وبلّ المحارم من دموعه ليه

فى هذه الشقة المنعزلة قضتْ عائشة طفولة معذبة ، وصبا مكبوتا ، ومراهقة مرهقة ، وشبابا لم يكد يولد بعد . مع هذه الشرفة عاشت لحظات وحدتها العصيبة . بدت الآن عائشة فى قميص نومها الأبيض مثل حورية ، جاءت توقظ العالم الصامت وتعزف سيمفونية ميلاد اليوم الجديد .. يوم أول أكتوبر ..

ـ أنت يا عائشة طالبة ذكية جادة .. تعملين المطلوب منك فى الوقت المناسب كأنك عقرب ساعة ، ولكن ..

تأملت الأستاذ الذى طالما نظرت إليه فى رهبة ولهفة . عجيب أن تخشى إنسانا وأن تحبه فى آن واحد . توقفت أنفاسها وهى تنتظر ما بعد لكن ، وآه .. ثم آه مما بعد لكن هذه . نظرت إليه بعين ناعسة احتوته فى لحظة سريعة ، سرعان ما توقفت عند الزرار الوحيد فى جاكته السوداء . الزرار شىء بسيط ... كم يبدو صغيرا .. رخيصا .. بدونه لا تتماسك الجاكتة ، ولا تبدو بمثل ما هى عليه من جمال وأناقة . لا تدرى سر إعجابها بالأزرار . أحست أن طالبات السنة الرابعة بكلية البنات يرقبن الحوار فى حماسة :

ـ البحث الذى ألقيته مثل أبحاثك السابقة ، فيه قدرة على التحليل والتفسير من غير مقدمة نظرية أو منهج محدد .

ـ ما يهمنى يا أستاذ هو التطبيق .. التجريب ، وليس ..

ـ هل انتهيت من كلامى حتى تردى على ملاحظاتى ؟

انتهت الدراسة الجامعية ، وعدت إليك يا كهفى الحزين .. من المستحيل أن أستعيد فيك دورة الزمان ثانية . لقد أديت المطلوب وزيادة . كنت كبرى أولاد أم تعيسة مطلقة ..!! الوالد المبجل الحاج رمضان خليفة تزوجها منذ ربع قرن تقريبا ، كانت ابنة خاله ، مد له أبوها يد المساعدة بغير حدود ، حتى فتح محل قماش فى المنصورة .. لكن التجارة شطارة ، وأكل العيش يحب الحركة ، والحركة بركة . سرعان ما أصبح الرجل الوديع ابن سوق ، يعرف السلعة الرائجة وكيف

يستدرج الزبون ويغرى الناس ، لا سيما النساء — أكثر البشر حرصا على الاستهلاك . أكثر من هذا صار يبيع بالأجل والربا للفلاحين وصغار الموظفين . اتسعت التجارة ، وصار صاحب محل وعمارة . وتنصل التاجر الغنى من كل ما يربطه بالماضى الفقير ، ترك الأم الفلاحة بعد أن أنجب منها ثلاثة أبناء ، وتزوج من امرأة طرية من البندر ، وأقام معها فى شقة أنيقة فى شارع « السكة الجديدة » .

— حتى أنت يا سلوى .. أنت تقولين ذلك ؟

— يا عائشة يا أختى .. الحياة ليست مذاكرة فقط . يمكن أن تحصلى من فيلم جيد أو مسرحية نظيفة أو مجلة جادة أو مناقشة خصبة ، أو حتى رحلة خلوية ، أكثر مما يمكن أن تأخذيه من كتب الدنيا جميعا . ثم ألا تملين المذاكرة والقراءة .. و .. حجرة بيت الحريم .؟

— عاهدت أبى على ألا أخرج من بيت الطالبات ، وإذا أخذت على نفسى عهدا مع أى أحد ، فكبريائى لا يسمح لى بعدم الالتزام به .!

— هل ركب أبوك على ساقيك عداد تاكسى ، ليعرف عدد المشاوير التى قطعتِها ؟ من الغريب ونحن صديقتين حميمتين أن يكون بيننا كل هذا الاختلاف .

— لا اختلاف ولا يحزنون .

انتقلت إلى جوارها ، حيث كانت تجلس على السرير ، فالحجرة حجرة بيت الطالبات ليس بها سوى سرير وكرسى ومكتب وشباك وباب .. كل شيء من هذه الأمور واحد .. واحد فقط لا غير . وضعت يدها على كتفها وقبلتها فى مودة حانية :

ـــ سأذهب معك اليوم إلى السينما ، وليكن ما يكون .. فقد سئمت حتى السأم .

اليوم أول أكتوبر ، بداية العام الدراسى . بعد أن أتمت عائشة تعليمها ينبغى عليها أن تنتظر سنة أو سنتين حتى تعينها إدارة القوى العاملة مدرسة قد الدنيا فى أى قرية أو مركز ، وتأخذ عشرين جنيها .. لا تدرى ماذا سوف تفعل بها . بدأت تحس بفراغ كبير ، أمها شبه مريضة منذ أن تركها الأب النذل . ما أثقل حركة الأيام . الأب يميت الأم موتا بطيئا .. بطيئا . وعليها هى أن تتحمل التبعة ، ترعى الأم المريضة ، تدير شئون البيت ، تساعد أخويها الصغيرين .

ـــ جئت أبارك لك .. مبروك النجاح فى الجامعة يا عائشة .

ـــ أشكرك يا بابا .

ـــ فى الحقيقة .. الشكر يجب أن يقدم لصديقى الحاج عمر .

كنت أجلس فى مكانى ثابتة ـــ منظر الضيف كريه .. شاب مترهل فى الثلاثين ، يلبس حلة حشر نفسه فيها بالقوة .. لم يستطع أن يحكم رباط العنق .. لماذا رباط العنق ونحن فى الصيف . يحرك يده اليمنى كثيرا حتى يظهر خاتما ذهبيا ضخما . انتفضت فجأة من الداخل .. ارتعشت .. راودتنى فكرة عاصفة .. لا .. مستحيل .. كيف يكون الأمر مستحيلا والمسرحية الساخرة تتم الآن أمام عينى . الخمر أورمت جفون أبى .. والسهر عكر بياض عيونه .. الحشيش والسجائر سوّدا أسنانه مثلما سود حياة أمى . كرشه يبدو مثل برميل من الطرشى البلدى . أى جريرة لم ترتكبها بعد يا حاج رمضان ؟ تكلم بصراحة ..

قُلْ لى .. فإن قلبى يحدثنى أن هناك شيئا ما .. قلبى لا يكذبنى ـــ خاصة فى الشر من كثرة توقعه ..!! الحاج عمر يا عائشة صاحب محل رائج للخردوات بالقرب من محل بابا . ولعل فكره التجارى وحسه الانتهازى جعله يفكر فى أن يزوج دكانه بدكان آخر . ليس هذا زواجا ، إنما هو حلف اقتصادى .. وأنا ضحية التاجرين .. المهم أن تنمو التجارة .. وتتسع العمارة .!!

ـــ إنما يا حاج رمضان الحق حبيب الله ـــ (بهذه البساطة يابن الذين تتحدث عن الحق .. والحب .. والله ..) ـــ يكفى ما فعلته حتى الآن .. التعليم ضرورى للبنت لا مانع .. أما الوظيفة فلا . تصورى يا آنسة عائشة(التفت إليها وهو يتعمد إبراز الخاتم الذهبى فى يده) فراش المحل عندى يأخذ مرتب موظف فى الدرجة السابعة عند الحكومة ، غير الإكراميات وملابس العيدين .

عليك بالعقل يا عائشة ..! احذرى الانفعال .. فى الغضب تضيع ثلاثة أرباع الهيبة ، وفى الاعتذار عما حدث أثناء الغضب يذهب الربع الباقى .. أعطِ عواطفك وانفعالاتك إجازة تعشْ فى سلام ..! تركت الشريكين يتحدثان فى أشياء عامة .. تافهة .. هى وحدها تدرك تماما أنهما يمهدان لصفقة خاسرة .: التغابى علاج جيد للمواقف الحرجة . تأملت أكرة الباب ـــ كأنما غابت عن الوجود الخارجى ـــ الباب من الخشب وليس به زجاج . الباب يقع فى .. فى الجهة الشرقية .. بالضبط . الباب يفتح .. ويقفل ، غير أن الأكرة ـــ الأكرة وحدها ـــ هى السبيل الوحيد لذلك . من أى شىء يصنع الحدادون الأكر ؟ أكرة

بابنا من النحاس الأصفر ، لكنها صدئت قليلا .. بسبب الزمن ، وهى ما زالت تحمل دلالة متجددة على العراقة والعز ، لأن الأكر فى هذه الأيام لا تصنع إلا من الألمونيوم . (دققت النظر أكثر .. وأكثر) الأكرة فى منتصف الباب تقريبا . لا .. لا يا عائشة ؟ بالدقة والتحديد — إذا قسمنا الباب إلى خمسة أخماس ، فهى على بُعد خمسين من تحت إذا نظرتَ من أسفل ، وعلى بُعد ثلاثة أخماس من فوق إذا نظرت من أعلى .. الباب .. باب الحجرة مفتوح إلى الداخل ، تظهر منه ناحية واحدة — هى التى تبدو بوضوح فقط ، كأنى ما قضيت اثنين وعشرين عاما هى كل عمرى فى هذا البيت .. أقصد أن أقول فى كل هذا العالم .. دون أن أتأمل هذا المنظر . افتحى عينيك جيدا يا عائشة . الأكرة يدها نصف دائرية تقريبا ، تبدو منحنية أكثر عند النهاية ، وفيها تدرجات متتالية .. ثلاثة خطوط واضحة فوق ، ونصف خط تقريبا فى النهاية . هذه الأكرة تشبه إذا قلبت — إلى حد ما — مخلب أسد .!!

اليوم أول أكتوبر يا عائشة .. ذهب الأخوان إلى المدرسة ، وأنت — لأول مرة — لا تذهبين إلى مدرسة أو كلية . البيت يبدو اليوم سجنا رهيبا . يا ليل .. يا ليل .. ما أقسى حزن الإنسان عندما تضعف العين ويقوى الناب ..! أحست الأم الطيبة — بقلب برىء — أن ابنتها غير سعيدة ، تبدو كما لو قد ضاعت روحها .. فقالت فى فرح هادئ : متى أراك عروسة يا عائشة .. كلما كبرت زادت حلاوتك .. قمر أربعة عشر والنبى يا عائشة ؟

نظرت إلى الأم فى صمت مالح .. إنها تحب أمها لدرجة العبادة ، لولا

هذه الأم الطيبة لما تعلمت هى ولا أخواها . لقد تقبلت صدمة زواج الأب بقلب بارد وحسرة حارة .. لا يمكن أن تنسى ثورتها العالية ، يوم رفض الأب أن تواصل دراستها بعد الثانوية . قالت له فى إصرار عنيد وتحد شرس : لقد دمرت حياتى وحطمت بيتى .. وقد تساهلتُ فى حقى .. واستسلمت لقدرى .. لكن لا .. لا لن أتركك تحطم حياة أولادى .. ستواصل عائشة تعليمها فى الجامعة ، حتى .. حتى لو تسولت على أبواب المساجد ، لأحضر لها مصاريفها . غير أن الطاغية حتى حين يستسلم .. يشترط ، فقد رهن موافقته بأن تدخل كلية البنات لتكون بعيدة عن الاختلاط بالشباب وعالم الرجال .! ذبلت الوردة قبل الأوان يا أمى الحبيبة . أصبحت جلدا على عظم . ما زالت لك رغم الحظ الأسود والبيت المعتقل قدرة فطرية على الإحساس الصادق والوعى البرىء . ماذا أملك لكى أعطيك .؟ لقد عشت طوال أيامى السابقة أحاول ما استطعت أن أعوضك .. أن أرد الجميل .. وانتظرت .. انتظرت طويلا .. عشت عمرا مرا وحياة بائسة فى انتظار هذه اللحظة الفاصلة . أنت يا أمى أمس غارب .. وأنا يوم طالع .. ومهما كانت تَضحيات اليوم .. فلن تعيد الأمس .. ما فائدة التضحية البلهاء والطيبة الغبية ؟! ما ذنبى إذا تغافلت الأم وفسد الأب وعقم الزمان ؟ لابد أن أحدد قدرى من اليوم كما أريد ..!! مللت .. كرهت .. تعبت .. من حكايات الأم وأوامر الأب ووصايا المعلمين وحديث الصديقات .. سئمت حتى شماتة الحساد . أحس أنى فى حاجة ماسة إلى .. الخروج .. والتجديد .. رغبتى نحو ذلك قاهرة .. طاغية ، حتى لو كان

فى هذا التغيير موتى .. هلاكى .. فلن أعدل عن ذلك .. سأداوى نفسى بالتى قد تكون هى الداء . تعبت من كل ما أنا فيه .. ومن كل من أعرف . أحلم بواقع جديد وعالم بعيد .. أريد أن أعيش .. أعمل وأتعلم .. أعطى وآخذ .. أجرب الحياة .. أمارس الحرية .. أدرس .. ألبس .. أشترى عربة .. أكون .. أكون عائشة .. إنسانة .. بإرادتى .. أنا .. أنا .. أنا ..!!

قررت عائشة أن تدعو خالها وعمها وأن تخبرهما بقرارها لكى يبلغاه إلى الوالد . حين بلغه الخبر تصور أن دكانه مصدر كل ثروته ، يمكن أن يحرق على آخره ولا يسمع ما سمع . جاء مسرعا .. مضطرب الأنفاس والرجلان فى إثره . فى صالة البيت جلس الثلاثة حيث توجد كنبتان كبيرتان فى جانب .. ومائدة للطعام متوسطة الحجم فى جانب آخر . أرض الحجرة مغطاة بكليم بلدى بنى اللون به خيوط بيضاء ، وتحت شباك يطل على مسقط النور كرسى خشبى من غير ظهر ، وضعت عليه صينية بها مجموعة متنوعة من القلل الفخارية . جلست الأم على كرسى بعيدا عنهم بعد أن فتحت لهم الباب .. واضطربت حين رأت الشر فى وجه الحاج رمضان .. الذى زعق .. وصاح بصوت عال مناديا عائشة من الداخل . كانت تغير ملابسها .. ما أحبت يوما أن يراها أحد فى ملابس البيت .. أو النوم . إلى أن تحضر بدأ يسب الأم ويتهمها بأنها قد أفسدت الفتاة و لم تحسن تربيتها . خرجتْ وقد بدت فى قامتها الممشوقة وعودها المتناسق مثل مهرة أصيلة . كانت ترتدى بلوزة حمراء وبنطلونا بمبيِّ اللون . جلست دون أن تحيى أحدا.. استمر الأب يواصل لوم الأم

وسبها ..

ـــ ليس من اللائق يا بابا أن تسب سيدة .. فى حضور أخيك وأخيها ، ثم لماذا تترك الأصل وتمسك الفرع ؟ وضح سر غضبك وسوف نتفاهم .. وقد نتفق ؟.

قال العم .. وهو رجل ريفى :

ـــ نعم يا أخى .. قل طلباتك يا حاج رمضان .. كل شىء بالهدوء ينصلح .. ونحن يهمنا راحتك ورضاؤك يا عائشة .. وكلنا تحت أمرِك .

ـــ كلنا تحت أمر الحق والعقل .. (ثم واصلت فى هدوء متزن) الدنيا تغيرت يا عمى ، لقد سمعت أبى كثيرا .. لا أذكر أننى خالفت له أمراً حتى اليوم . والآن عليه هو أن يسمعنى .. وأن يناقشنى بالتى هى أحسن .

تمتمت الأم من ركن بعيد ، وهى تراقب الموقف كالخرساء .. « قل أعوذ برب الفلق .. من شر ما خلق » .

كيف خلقك الله يا عائشة .. تبدين فى مشيتك السريعة وقامتك المعتدلة مثل جندى ألمانى صارم . طالما تمنت أن تكون ولدا لا لشىء إلا لكى تستطيع أن تمارس القتال .. كم تمنت أن تحارب الشيطان فى كل مكان .. وتحت أى اسم أو شعار . كم تمنت أن تحارب فى سيناء .. فى القدس .. فى الجولان .. فى فيتنام .. فى جنوب أفريقيا . جيفارا فارس أحلامها ونيرودا شاعرها وبيكاسو فنانها وسيد درويش مطـــربها .. « يا عزيز عينى .. وأنا نفسى أروّح بلدى » . ما أحست يوما بعاطفة نحو شاب فى مثل سنها قط ، شوقها دوما إلى رجل .. رجل ناضج حكيم ، شيب الزمان قلبه وحطم أشواكه . كان التحدى الحقيقى أن

تهرب من سطوة حب عنيف لرجل أحبته مريدة . أحب فيها الذكاء .. الوضوح .. صفاء الروح . وعشقت هى فيه حكمته الصبور وتسامحه العاقل وعطاءه الطاهر . كان بالنسبة لها مزيجا عنيفا من الأب والمعلم والمحب .. من الرجل والإنسان . ثلاث سنوات ما هفا القلب — فى صمت حارق — لسواه . قررتْ أن تبتعد عن تجربة حب مرة . كم فكرت — وما استطاعت — أن تقول له : « أيها الرجل لماذا تتزوج من لا تحب ، وتحب من لا تتزوج ؟! » هربتْ منه كما أسقطت كل الماضى من تاريخها . كل الكلام يقصر عن التعبير عما فى داخلنا . العين لا تشبع من النظر ، والأذن لا تمتلئ من السمع ، ما كان فهو ما يكون ، والذى صُنع فهو الذى يصنع ، فليس تحت الشمس جديد . ولكن لماذا لا نخلق الجديد إذا لم نجده . إن للحكمة بلا شك يا عائشة منفعة أكثر من الجهل ، كما أن للنور قيمة أكثر من الظلام ..!

— قررتُ أن أسافر .. سوف أبحث عن عمل فى أوربا ، أريد أن أكتسب مزيدا من العلم والخبرة .. من المعرفة والحياة .

— وماذا أقول للناس .. أنا الحاج رمضان .. التاجر الغنى .. الذى يعمل له الكل فى المنصورة حسابا .. لم يعصنى أحد طول عمرى .. وتأتين أنت فى آخر الزمان لكى تفضحينى .. ؟!

قال الخال فى هدوء :

— لا سامح الله !

أردف العم :

— إن كنتِ تريدين المال .. فالمال والحمد لله كثير ، وإن كنتِ

تريدين التعليم ، فأنت ما شاء الله ، قد حصلت على الشهادة الكبيرة .. من الجامعة ، وإن كنت تبحثين عن العمل فاعملى بين أهلك ، وإن كنت تريدين الزواج .. يا عروسة .. فأى شاب لا يتمناك ؟!

ــ لا أريد إلا أن أعيش .. أجرب الحياة بنفسى ، فى واقع أبدأ فيه من الصفر ، دون أى روابط قديمة تقيدنى . أريد أن أولد من جديد .. باختصار لابد أن أسافر .

انحدرتْ من عينى الأم دموع كثيرة . انهار الأب فجأة وعجز عن الدفاع وصمت عن أى رد . تحول عن موقف الآمر الناهى ــ لأول مرة معها ــ إلى موقف النادم المستعطف . يبدو أن كثيرا من الناس طغاة لأننا نركع لهم ، فإذا ما رأوا القوة خروا ساجدين .!!

قال فى رقة :

ــ خذى ما شئت من مال .. اطلبى أى شىء . ولكن لا ترحلى .. لا تسافرى يا عائشة .. أخاف عليك مرارة الاغتراب .. وقسوة الذئاب .!!

أضاف الخال :

ــ هنا يا ابنتى الإيمان .. الطهارة .. الأمان.. الراحة . كيف تستبدلين الذى هو أدنى بالذى هو خير .؟!

قد تقتل فينا الحضارة والغُربة بعض مظاهر البراءة الفجة والطهارة الساذجة .. لكن ذلك يجعلنا نمارس الحياة الحقة . لا ورد بلا شوك ولا حلاوة بدون نار ، هذه سنة الحياة ..!!

ــ لقد أعددتُ كل أسباب السفر (أظهرت دفترا صغيرا أخضر

اللون) .. استخرجتُ جواز السفر .. وحصلت على عقد عمل .. كان يمكن أن أسافر دون أن أقول لكم كلمة . لكن طبيعتي ترفض الجبن والهروب . الآن سوف أحسم لكم الموقف .. فإما أن أسافر .. أو أنتحر .. أو نحتكم إلى القضاء بعد أن بلغت الآن سن الرشد .

ــ يا للفضيحة .. يا لشماتة الأعداء فيك يا أم عائشة ..!!

شهقت الأم شهقة حادة .. وهى تلطم كفيها صامتة فى حركة لا إرادية .

ــ ونهون عليك يا عائشة .. تضحين بنا .. ببلادك .. وأهلك .. من أجل ماذا ؟ يا خسارة ..!!

ــ لمَ تفهم الأمر على هذا الشكل يا عمى ..؟ الألوان ليست أبيض وأسود فحسب .. هناك ألوان كثيرة بينهما . ثم هل معنى سفرى أنه رفض لأهلى وبلدى .. لا .. هذه نظرة غير صحيحة . لقد تغيرت الدنيا .. ولكن ....

قاطعها العم حانقا :

ــ تتفلسفين علينا .. يكفى أنكِ بعتنا .. لكن لا يجوز .. ولا نسمح بأن تسخرى منا .

ــ لن تفهمني يا عمى .. لن تفهمونى جميعا .. جميعا .. يبدو أننا نتكلم لغة مختلفة .!

تركت الصالة فى سرعة خاطفة ، وأغلقت خلفها باب الحجرة فى صمت هادئ . توجهت إلى النافذة فأحكمت إغلاقها .. أظلمت الحجرة .. مات كل صوت أو ضوء يأتى من الخارج . رقدت فى

إعياء على السرير .. أحست أن وراءها هموما كثيرة .. اثنتان وعشرون سنة لم تجد فيها لحظة صفاء حقيقية ، كبقرة فى ساقية الزمن . تساءلت إذا كان الحكيم يموت كالغبى فكيف يجوز أن يعيش النسر مثل الغراب ؟ أحست ريحا باردة تعصف داخلها ، تحمل ذكرى أسرة ممزقة وحب فاشل ، وطموح لم يتحقق .. ما الصواب .. ما الخطأ ؟ أكاد أشك فى نفسى من فرط ثقتى بها . أى عالم سوف أسعى إليه . يبدو الأمل حلما عصيا ، وحين يتحقق نشقى فيه — أحيانا — مثل ما كنا نشقى فى السعى إليه . حركت يديها كأنما تطارد أشباحا ترقص فى سخرية وشماتة حولها . اصطدمت بمفتاح الكهرباء فحركته إلى أعلى . ملأ الضوء الحجرة كلها وبدأت تتبين معالمها .. جزءا .. جزءا .. كل هذا صنعه المفتاح البسيط .. مفتاح الكهرباء ، الذى يحتل مساحة صغيرة على الحائط . ما أصغر حجمه وما أعظم قدرته . كم لأشياء تبدو صغيرة .. صغيرة ، قيمة كبيرة فى حياتنا ، مثل هذا المفتاح الكهربائى العجيب .!!

اشتاقت عائشة فى هذه اللحظة — لحظة التنوير ، أن ترقص باليه . ابتسمت شفتاها المكتنزة فى ضيق . أخذ أنفها المدبب يستنشق هواء له تأثير خاص . فتحت يديها وصدرها كأنما تعانق أملا لا ضفاف له . دارت حول نفسها .. تمنت أن تكتب قصيدة .. وداعا أيتها الأحزان .. ومرحبا أيها العالم المجهول . النور عذب جميل . وخير للعين أن تنظر للضوء . إذا عاش الإنسان سنين كثيرة فليفرح فيها كلها ، لأن ليالى الظلمة أطول من أيام النور . افرحْ فى حداثتك . استفت عقلك . انظر بعينيك . اسلك فى طرق قلبك . عش حياتك

بإرادتك .. فغدا تموت كما تموت الدودة فى الصخر الأخرس !.

نظرت عائشة حواليها فى لهفة .. فوجدت أكرة الباب فى مكانها ، ومفتاح الكهرباء الصغير مرفوعا إلى أعلى .. بينما سقط زرار من بلوزتها الحمراء(*) .

* * *

(*) كتبت فى إبريل ١٩٧٧ ــ نشرت فى جريدة « الاتحاد » ــ أبو ظبى ــ ٢٠ يوليو ١٩٧٨ .

(عمار يا مصر)

النيـــل ..
يعزف أسطورة الميلاد

« فى المرفأ الصخرى .. حيث السحبُ
والإعصار ، أمينةً تطل عينُ المنـار ،
تنفـى الليـلَ ، تثـبّتُ النهـار » .
(من وصايا .. اللغة الديموطيقية)

ــ أيها الأب الحكيم يا كبير كهنة التاسوع ، جئت إليك فى مدينة « طيبة » على قارب خشبى من قرية « عين شمس » ، حيث تسكن الإلـٰهة « نايت » أم الإلـٰه الكبير « رع ــ آتوم » .

ــ ما خطبك أيها الابن الطيب ؟

ــ أتوسل إليك باسم إلـٰه النور ، وإلـٰه دنيا الظلام ، أن تقرئنى بعض تغاويذ ، تعيننى على لقاء ملكنا « أمنحوتب الثالث » ، لكى يسمع شكواى ويحل كربتى .

ــ أى كـرب وأنت تبـدو معافـىً مثـل عجـل أبـيس .؟

أحس الراعى الشاب سنوحى تغيرا مفاجئا فى ملامح وجه الكاهن .

ــ ألست أيها الأب كبير كهنة التاسوع ، أعطاك الرب العظيم « آتـوم » أسرار ولـده « رع » لتهدى العبـاد ، وتقـرب بين الملك والرعية ؟

ــ لا تهرف أيها الصعلوك الوافد من الشمال بأسماء الآلهة ، ووضح قصدك ؟

ـ حبيبتى الجميلة أيها الأب ..

دق الكاهن العجوز الأرض بعصاه الطويلة الغليظة . دخان كثيف انطلق من إناء به نار وبخور وطيب ، أحدث طقطقة ، تداخلت مع أناشيد الكهنة يأتى صوتها من بعيد .

ـ منذ متى أيها الشاب الأرعن ، كان المعبد الكبير ساحة يتحدث فيها البشر عن الحب والحبيبة ؟ حسبتك تريد شراء بردية مقدسة ، أو الاغتسال فى البركة الطهور ، أو التبرع ببعض أغنامك للرب ، أو أن تهب نفسك لتكون من خدام المعبد !

الراعى سنو - حى لا يفارقه هدوء الأمل :

ـ « تحوت » يا إلـٰهة الحكمة أرسلى بعضا من نفحاتك !

تطايرتْ أشعة الغيظ من عينى الكاهن . اللعاب يسيل خيوطا صفراء فى لحية اشتعلت شيبا .

ـ أوَ تستعين علىّ بإلـٰهة الحكمة أيها الصعلوك المحروم من رحمة الآلهة فى الحياة الدنيا .. أو .. أو فى الحياة الثانية ؟!

أحس الراعى أن هما مثل جزيرة فيلة ، يجثم فوق صدره . رئيس الكهنة بدلا من أن يناقشه .. يلعنه ، لكن من أجلك أيتها الحبيبة « بت ـ جبت » يهون حتى شرب الزرنيخ .

ـ عفوا سيدى الكاهن .. أعطنى الفرصة أشرح لك .

ـ أمطر يا سحاب .. انشق الحجاب .. وانفتح الباب .. تريد أن تتسول من الملك أم أن تعمل له نفاثات ذات عقد ؟!

ـ لا هذا .. ولا ذاك .. ماذا دهاك ؟

ارتفعت عصا الكاهن ، تبغى ضرب الرأس ، لكن الراعى تحرك فى ثبات فهوت على الكتف الأيمن . لا يستطيع قلب سنوحى الطيب أن يفهم سر ما وقع ، بيد أن عقله البرىء ذكره بشىء لم يدر كيف نسيه ؟ سحقا للفكر المشتت . الفتى المصرى ولد عفريت ، يستطيع أن يلعب بالبيضة والحجر ، دون أن تعرف البيضة من الحجر ، ودون أن تنكسر البيضة من الحجر .!

أخرج الراعى قلادة ذهبية على شكل « مفتاح الحياة » فى وسطها جوهرة خضراء ، تتلألأ مثل نجم قذفت به « نوت » إلٰهة السماء .. أخذ يحركها أمام عينى الكاهن .. يمينا ويسارا .. يسارا ويمينا . تبدل الحال ، وأذهب ضوء الذهب كل ما كان . استيقظ الكاهن من غضبه ، وتثبت الراعى من رباطة جأشه .

ــ ما هذه أيها الشاب المتهور ، لكن .. لكنك أيضا طيب .. هكذا الشباب دائما .. ذكرتنى بشبابى يا بنى .. ما اسمك .. وما شأنك ..؟ نبئنى .. قل .. أسرع .. تكلم .

ــ المهم يا سيدى أن تأخذ تلك الهدية ، قلادة حبيبتى الذهبية ، وتهيىء لى فرصة مقابلة الملك .

ــ اتفقنا .. انتهينا .. الليلة .. من حسن حظك .. الليلة تكون عنده . لكن القلادة .. القلادة أولا . هذه الليلة ليلة الاجتماع الشهرى : أولها ترانيم وطقوس ، يتلوها حديث ونقاش ، بعدهما رقص وموسيقى ، وفى الختام (يبتسم فى خفة) .. حب ومناجاة . هات القلادة إذن ونكون قد

اتفقنا ، وليبارك« رع » هذا الميثاق ، أو يسخط من يخونه قردا من قرود الحبشة .

ـــ لك هذا أيها الأب الكاهن .

يقفان وجها لوجه ، يتلامس الأنفان علامةالمودة ، تتلاقى العيون فى خط مستقيم دلالة الاتفاق .

سربَ القطا هل من يُعير جناحَه علّى أطير إليك أيتها الحبيبة « بت ـــ جبت » ؟.. لا تراعى سوف يذهب الرمد من عينيك الجميلتين .. ستخرج الدودة من قلبك البكر . ستعودين أحلى فتاة فى وادى النيل ، سأحضر لك مداويا من « بيت الحياة » حيث يوجد رجال تفرغوا للحكمة والطب والديانة والسحر ، ليس إلا واحد منهم يستطيع أن يحول بينك وبين الداء الوبيل . وهم لا يعالجون سوى الأسرة الملكية ذات الدم الأزرق أو من يوصى فرعون بعلاجه . ليت عرافة القرية قد استطاعت أن تعرف سر الداء الخطير ، آه .. لكل ما يؤذى وإنْ قل ألم .! لن تموتى .. فقد دعوت لك فى كل شبر ، وصليت فى كل معبد .. ابتهلت لكل الآلهة .. « آتوم » الإلـه الكبير وزوجته « نايت » .. وولديهما « رع وإيزوريس » . قلبى الذى يخفق بحبك مؤمن أن الفجر يأتى مهما طال الليل .

جاء موعد الاحتفال الشهرى ، الذى يتم عادة ليلة اكتمال البدر ، حيث يأخذ كل فرد مجلسه فى البهو الملكى حسب رتبته ، تبدأ مراسيم المهرجان بالطقوس الدينية . أخذ الكهنة يستعدون للدخول ووراءهم صفوف من المنشدين والأتباع ، اندس بينهم سنوحى بعد أن أعطى

الكاهن القلادة ، فمن أجل ضوء العين وسلامة القلب يهون أى شيء ، بل كل شيء .

لكن الراعي — الذى يلعب بالبيضة والحجر — أفهم الكاهن أنه فأل شؤم .. إذا لُبِست القلادة الذهبية ذات الجوهرة الخضراء فى ضوء القمر ، هكذا يقول حكماء قريته « عين شمس » . لذلك لا ينبغى أن تُلبس إلا فى شهر « برمهات » حيث تبدأ براعم الأزهار والفواكه فى الإثمار ، حينئذ .. وحينئذ فقط تُلبس ، لكى تجلب الخير والبركة . بيد أن الفتى كان قد زيف بعض نماذج من النحاس الأصفر والزجاج على مثال قلادة الحبيبة ، لتساعده على قضاء حوائجه حين تحرجه .. الظروف .

« كُتب عليكم القتالُ وهو كرهٌ لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خيرٌ لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا ، وهو شر لكم » .

اقتربت الساعة وانشق الجدار الحديدى بين بهو المعبد وساحة القصر ، التى تناثرت فيها الأعمدة والتماثيل . البدر يضئُ المكان من عل ، بينما شعلات مقدسة تشع بالنور والبخور هنا وهناك . أرائك مصفوفة وذرابى مبثوثة فى صدر البهو . أمنحوتب الثالث فرعون مصر المهيب يجلس على النمارق المزركشة وخلفه الوسائد المطرزة . على يساره — قرب قلبه — الملكة الجميلة « نفرو — رع » . أميرة بين الطفولة والصبا ، وشبل صغير ، يجلسان أمامهما . على مسافة من الأسرة الملكية يجلس على درج متوال كبيرُ الكهنة ورجال البلاط والإدارة والجيش . ليس هناك حرس فالملك يحميه حب شعبه ، الذى يراه أسرته الكبيرة . وقد أفهمته يوما أمه « سُعدى — ست » أنه

بقدر ما يحتاج إلى بركة « رع » فهو فى حاجة أيضا إلى رضا شعبه .

دخل الكهنة والمنشدون وبدأت الأناشيد المقدسة ..

بينما ترانيم الأناشيد تتردد فى إيقاع بطىء رتيب ، كان سنوحى يحدث نفسه : يا للمشابهة الكاملة .. حبيبتى ما نطقت إلا صدقا . هذه « نفرو — رع » الملكة ، الشقيقة الكبرى لحبيبتى المريضة « بت — جبت » ، التى قالت لى يوم أخذتُ أطرى جمالها — (قوامها شجر الكافور ، صدرها مائدة من الفاثور ، عليها حبتان من الخوخ ، شعرها ذو ضفائر كثيفة مثل أغصان النخيل ، وجهها بدر منير ، عيناها جاحظتان حوراوان ، رموشها سيف قدر ، خداها برقوق فيومى أحمر ، فمها ثمر فراولة من حدائق الجيزة ، أسنانها حبات فستق ، أنفها .. قرن شطة .) — إنها شقيقة للملكة التى كانت تعيش مثلها فى قرية « عين شمس » منذ عشرين مرة زُرعتْ فيها الأرضُ حنطة ، كانت عائدة من الحقل وشعرها الأسود من خلف ومن قدام يتبختر — فى دلال حلو — حول الجسد الجميل . بدا الوجه نهارا مشرقا وسط ظلام حالك . رآها الملك — الأمير ولى العهد حينذاك ، الذى كان يتجول وحده فى رحلة إلى الشمال ، فقد جاء متنكرا ليعرف بنفسه كل شبر فى الأرض الطيبة ، التى سيصبح حاكما عليها . انبهر . نسى وصايا الملك . لم يكمل الرحلة . تغير .. تحول .. تاه .. ياه .. يا للجمال البشرى .. يا لحزن أمك عليك يا من تعيش أو تموت ، لا تدرك سره ، ولا تعرف عطره . ناداها بنظراته فأتته شيقة حواها شيق ، خلع عليها حياته وحياءه ، ألقى بنفسه ونفيسه . قادت إرادة البشر سهم القدر . غابت مدة قمرين كاملين عن

الدار ، لا أعرف ماذا حدث ، فما كنت قد وصلت إلى هذا العالم بعد .
لكنه فيما يبدو لى شيء صعب .. فقد كانت وحيدة للأبوين الحبيبين . ثم
جاء رسول الملك يقدم الأمان ـــ لا الأثمان ، فمن يفرط فى مثل نفرو ،
ولو أعطى أموال قارون وكنوز سليمان ؟! حين ذهب الأب الحزين سمع
الملك يقول له : هذا حدث جليل سوف يؤرخ به فى كل الدهور ،
وسوف أصلى للآلهة حتى تغفر ما أقدمت على تحقيقه لأول مرة فى وادينا
الحبيب . « آتوم » يا رب الأرباب وجامع القلوب على المحبة ، أشهدك
أنى فرعون مصر أمنحوتب الثانى أبارك زواج ابنى بفتاة فقيرة من شعبى ،
راجيا أن ينجبا سلالة مباركة ، تنشر الخير والعدل فى البلاد . زغردى
يا رياح فى كل البطاح ، ففى الناس المسرة وعلى الأرض المساواة .!!

بينما الكهنة والمنشدون يتأهبون للخروج بعد أداء دورهم ، استبدل
سنوحى العفريت ملابس الكاهن برداء الكاتب ، وجلس بين الحراس
والكتبة ، كل منهما يحسبه واحدا من الآخرين . من مكان بارز يتصدر
واجهة البهو ، كان يجلس كوكبة من عِلية القوم يتوسطهم كبير الكهنة ،
قام من بينهم قائد الجيش مرتديا عُدة المحارب ، وخطب بصوت جهورى
معلنا أن البلاد محمية الحدود ، والأمن سائد بين الرعية ، وأن الجيش على
أهبة الاستعداد لحماية الديار والملك من كل خارج أو معتد .

بعد ذلك أعلن جابى الضرائب أن الرخاء يعم البلاد ببركة الإلٰه
وعدالة الملك ، وقد دفعت الرعية حق الدولة وبقى عندهم من المحاصيل
ما يكفيهم وزيادة . فللإلٰه العظمة والثناء ، ولفرعون المجد والبقاء .

جاء دور الشاعر « حُور ـــ مُحبّ » الذى وقف مربد الوجه حزينا

فى يسار البهو ، البشر يبدو على قسمات الملكة ، والملك يصيح مبتهجا :

ــ هل ستقول الليلة شعرا فى وصف الطبيعة أم فى تصوير الحب يا شاعر مصر المبجل ؟!

أجاب بصوت كأنه صلاة « أيوب » المبتلى : الليلة يا مولاى لا يغنى شعر ولا يفيد نثر ، لقد ألهمت أرجوزة فريدة ، لا سعادة لك إذا لم تسمعها ، ولا خير فىّ إذا لم أقلها .

ــ ما خطبك يا شاعر الحكمة ومنارة الأمان .؟

ــ إن « تحوت » إلٰهة الحكمة قد أنطقت لسانى بآيات بينات ، عليها يتوقف صلاح البلاد وسعادة العباد .. أرجو يا مولاى أن يتسع صدرك لما أقول ، فما كان أبوك العظيم يستنكف اتباع الحق متى تبينه ، بل لقد كان يطلبه متى وجد السبيل المخلص إليه .. واليوم على أن أقول وعليك أن تدبر أمرك .

ألا ليت أيام الصفاء تعود ...!!

ــ اليوم سوف أشوى لك يا « بت » .. على حطب الكافور عنزة صغيرة . لا تقولى شيئا ، يكفى أنك قد عصيت أباك من أجل خاطرى ، ولم تخرجى فى زمرة الفتيات يوم مهرجان « وفاء النيل » . خشيت يا حبى أن يختاروك عروسا لنهرنا ، فيسعد بك النيل المقدس ، ويحرم منك صديق لا يعرف للحياة طعما بدونك .

ــ أرأيتَ... كم أنت عزيز لدىّ ؟!

ــ مباركة بحق « إيزيس » . اليومَ مكافأة لك ، لن أطعمك فى الظهيرة خبز الحنطة ونبات الخسّ وجبنة المش ، إنما لحم الضأن الذى

يقوى القلب ويشد العظام ، ويضيّع الإحساس ببرد « طوبة » ، سأطعمك بيدى لحم الضلوع والأفخاذ ، وقطع الكبد والمخ .. إلا القلب .. فإنه لى ..؟

ـــ أوَ لا يكفيك قلبى يا سنو .. يا لك من محب طماع .. لن أسمح لك بأى قلب .. حتى ولا قلب أمك ..؟!

ـــ كيف تغار الغزالة من العنزة .. والإلـٰهة من البشر .؟!

اجعلنى كخاتم فى قلبك الحنون ، كأسورة على ساعدك الأمينة ، لأن المحبة قوية كالموت . الغيرة قاسية كالهاوية ، لهيبها لهيب نار لظى الرب . مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفئ المحبة ، والسيول لا تغمرها . إن أعطى الإنسان كل ثروة بيته بدلَ المحبة تُحتقر احتقارا .!!

وضع الشاعر يده اليسرى على نطاقه الجلدى ، وأخذ يلون حركة يده اليمنى ، لتؤكد دلالة ما يعبر عنه . موسيقى المعبد يطل صوتها من بعيد .. وضوء القمر يزرع أروقة المعبد سناء وسنا ..

أيها الإلـٰه « آتوم » يا عظيما فى جلاله
يا من خلقت البلاد البعيدة والقريبة .. وأقمت كل إنسان فى بلاده
وأسكنت هذا الشعب الأمين .. فى وادى مصر الخصيب
وأجريت فيه نيلا ، يهبط من السماء
فتجد حقولهم ما تحتاج إليه من ماء
ما أعظم تدبيرك يا سيد الأبدية
كل العيون ترنو إليك
ولكن ..

لا يراك إلا من عرف الحكمة وفصْلَ الخطاب
من وهبته عينا ترى الحق .. وتُريه للخلق
وها أنا ذا بقداستك يا سيد الأبدية .. وحامى الرعية
أبارك خليفتك على الأرض أمنى حوتب الثالث
أْى نعم هذا الملك العادل
إن هؤلاء الحراس والكتبة قد تعلموا فى معابد طيبة
وأجريت عليهم — من عرق شعبنا — الأرزاق والطيبات
بيد أنهم لا يخلصون لحاكم استأمنهم
ولا يعدلون بين رعية تولوا أمرها
فقد رأيتهم — بعين الحكمة — يستولون
على حنطة فلاح عجوز من قريتى
ولم يتركوا لصغاره حتى الشعير
وساوموا تاجرا على أن يعفوه من الضرائب
إذا أهداهم .. ابنته الجميلة
أكثر من هذا قالوا له فى سبيل هذه الإكرامية
سوف نمحو اسمك من الدفترخانة الأميرية
نما الفساد .. يا مولاى ..
وظهرت له أيادٍ مسنونة كأنياب أفيال
السمك الكبير يحاول أكل السمك الصغير
وليس ثم شباك يمكن أن تصيده
إنه يقطع كل شبكة تحاول الاقتراب منه

أينما تولى وجهك .. فثم آثام وآلام
أخشى يا مولاى أمني حوتب الثالث
أن يتحول الوادى الأخضر إلى أرض خراب
والحيثيون رغم الهزيمة النكراء
فى البحر والصحراء ..
ما زالوا ينظرون .. وربما ينتظرون .
حديث مر ... مر مثل العلقم ... يا مولاى .

اربد وجه الملك حتى صار كلون البن اليمنى . الملكة الطيبة تمتلىء عيناها بدموع حارة . نظر سنوحى فجأة فرأى كبير الكهنة وسط رجال البلاد والإدارة وقد أطرقوا ساهمين . يخبو الضوء .. سجا الليل . أحس سنو - حى أن الصوت لسانه .. وأن البكاء أنينه .

ـــ أيها الملك العادل .. يا أبا المصريين جميعا
بحق الإله « رع » قل لى :
لم نصنع السيوف والشماريخ الغليظة
والأسواط الجلدية التى نحضرها من الجنوب
هل لنضرب بها الحيثيين والهكسوس
وغيرهم من أعداء الوطن
أم لنعذب بها إخوتنا الأقربين وعشيرتنا المساكين .؟!

حبس البكاء صوت حور ـــ محب ، هبت عليه نسمة من روح أمه العجوز فى قرية بعيدة . صفق الملك صفقة هزت جدران البهو . الألم يتطاير من عينيه . غاب القمر . ماتت النجوم . شعر الملكة الجميل

بضفائره الكثيفة .. انمحى .. صارت صلعاء .. هرج ومرج .. انتفض الملك .. دق الأرض بقدميه .. اشتد خفقان قلبه .. غطت لحيته فكيه وأنيابه .. اتسعت عيناه .. اتسعت .. امتدت .. استمعت .. قالت .. أشرق النور من جديد .. ارتد البصر فإذا هو حديد .. عاد القمر .. رجع الشعر .

ـــ أوَ بعض هذا يحدث فى مملكتى أيها الشاعر الحكيم ؟!

ـــ بل وأكثر منه يا مولاى .. لكنى أشفقت من ذكر التفاصيل ، حتى لا أذيب قلب الملكة ، ولا أروع الأمراء الصغار .

ـــ لكن أحدا من الرعية لم يرفع إلى صوته بشكوى .. و لم ينقل فرد من الكتبة أية مظلمة .

ـــ كيف يشكو الجائع الخائف يا مولاى ؟

ضعْ فى يده اللقمة ينطق . ازرعْ فى قلبه الأمان ينطق .

حذارِ من دعوة المهضوم وصرخة المظلوم

إن شعبنا وديع مسالم .. ولكن ما أقسى غضب الحليم !

معصوم كل من يرى الحق ببصيرته ..

مبارك كل من يجعل العدل مقصده والحرية غايته .

والويل .. الويل .. لمن يرى بعيون الناس .

« قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إلـٰه الناس ، من شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس » .

ـــ أيها الشاعر الحكيم لقد فهمتُ مقصدك النبيل .. من اليوم لن أجعل

أحدا من الحراس أو الكتبة على رأس الإدارة .. من الغد تتولى رئاسة الديوان .. تعيد الأمن .. تنشر العدالة بإرادة « رع » ، ومساعدة أمنحوتب حبيب الشعب .

يا لقلبى كأنه ليس منّى .. جُمع الزمان فكانت هذه الليلة . فلتثبت أيها العقل — دوما — فالسبيل ممهد لخطاك .. سوف أعرض الآن مسألتى ، وأوضح مرض حبيبتى ، التى تطلب حكيما من « بيت الحياة » .

أحد رجال الحاشية قفز فى خطوات ثعلبية .. صاح بصوت متلون النبرات :

— الآن إلى الموسيقى والرقص .. هيا أيها العازفون بالقيثار والأرغول .. هلم أيتها الراقصات البديعات .. أدخلوا جميعا السرور على قلب المليك المفدى ، الذى استجاب لدعوة الحق وهدانا إلى فنارة الأمن ، وولى شاعرنا المخلص ، وابن فلاحنا الطيب ، لينشر العدالة والمساواة فى أرجاء الوطن العزيز .

أنا لحبيبى وإلىّ اشتياقه . تعال يا حبيبى : لنخرجْ إلى الحقل ولنبتْ فى البرارى ، لنبكرن إلى الكروم ، لننظرْ هل أزهر الكرم ، هل تفتح الورد ، هل نور الرمان . هنالك .. أعطيك حبى تفوح رائحته مثل الطيب ، وعند أبوابنا كل الذخائر من جديدة وقديمة ، ذخرتها لك يا حبيبى . ليتك لى كأخى الراضع ثدى أمى ، فأجدك فى الخارج ، وأقبلك ولا يخزوننى ، وأقودك وأدخل بك بيت أمى ، وهى تعلمنى فأسقيك من الخمر الممزوجة من سلاف رمانى ، شماله تحت رأسى ، ويمينه

تعانقنى . أحلفكن يا بنات الحور أن تصلين للرب من أجل شفاء حبيبتى الغالية بت — جبت .

تعانق الرقصُ بالموسيقى ، الراقصات يلعبن فى مهارة نادرة ، القد مياس والخصر عبقرى . ثم عازف كفيف بين جوقة الموسيقى ، تتحرك أنامله على أوتار القيثارة فى شاعرية معجزة . أى علاقة بين الرقص والموسيقى .. والسحر .؟! تضافرت أضواء القمر مع أنغام الموسيقى وإيقاع الجسد .. تداخلت أشكال الفن .. تقاربت عوالم البشر .. فى البهو العظيم .. تمتْ وحدةُ الوجود .!!

أفاق سنوحى من تأملاته وإذا الفجر مطل كالبشير ، فبدأ يقترب من مجلس الملك استعدادا للقاء ، تحمل من أجله السير والسرى طوال شهر قمرى . نعم من أجل عينيك أيتها الحبيبة عرفت نبل التضحية .. وأن الحب الحقيقى هو العطاء .. المنح . حزين ممسوس من يسأل نفسه ماذا أخذت ؟ سعيد مبارك من يهب كل ما يقدر أن يقدمه . لا حد لقدرة الإنسان ، فلا تقل يوما إنى لا أستطيع . بل قل إنى لا أريد .

— أيها الملك العادل .. يا نسل الفراعنة المعلمين .. أيتها الملكة الرحيمة .. يا بنتَ مصر الطيبة .. أرجو ألا تظنا أنى أردتُ تكدير صفو هذه الوجبة الفنية الجميلة ، التى طهرت المشاعر ، وأيقظت العواطف نحو الحب الحقيقى ، الذى يجب أن يسود ربوع الوطن المفدى .

— من أنت أيها الشاب ؟ هل سقطت من السماء أم انشقت عنك الأرض ؟

— أنا واحد من رعاياك ، جئت طامعا فى كرمك وعدلك .. خطيبتى

مريضة يا مولاى .. أصابها داء وبيل ، عطل العين عن النظر والقلب عن الحركة ، استفردت بها جنيات المراعى ووضعن فى العين قطرات حارقة ، ثم شققن الصدر وقذفن فيه بدودة خبيثة ..

— ما هذا الخطب الجلل ..؟!

— هو ما قلتُ يا مولاى .. ساعدنى .. أرسل معى حكيما من بيت الحياة .. أحلفك بحق راعيتك الزوجة — الأخت ؟

تغير وجه الملك وقال مستنكرا :

— ماذا تعنى ؟

— إن خطيبتى تلك .. المريضة ، أخت شقيقة للملكة الفاضلة نفرو — رع .. ألا تذكر يا مولاى منذ عشرين حولا ..؟!

تبادل الملك والملكة نظرات ساهمة ، تحمل نسمات ذكرى بعيدة .. حسم الملك الموقف بسرعة ، لا تعطيه الفرصة لمزيد من القول :

— فهمت شكايتك أيها المواطن ، من الغد توجه إلى الحكيم الكبير بنتاؤر ، وقدم له مظلمتك وسوف ينفذ التعليمات الملكية .

الكاهن يتابع الحوار فى لهفة .. أضواء الصبح الجديد توشك أن تتحرك ..

— لا يا مولاى عفوك .. إن الأمر جد خطير ، فلا تحلنى إلى كاتب يتحكم فى ، أو موظف يساومنى ، وأضيع بين الأبواب الأميرية . الدودة تكبر .. والعينان الجميلتان .. إليهما يزحف الظلام والعطب ..!

تساقطت دموعٌ ذكية من عينى الملكة ، عاودتها ذكرى طفولة بعيدة فى الشمال .

— الآن مقضية حاجتك .. أيها الوزير حور — محب تمارس صلاحياتك توا .. أصدر أول قرار عادل لمواطن من أبناء شعبنا الطيب .

تنفس الصبح وخرج سنوحى مع الوزير مشيعا بنظرات متوترة من الكاهن ، بينما رغبة حبيسة فى صدر الملكة .. كانت تتمنى أن تعود إلى عين شمس ، لتقف بجوار أختها الفقيرة المريضة . لكن لا سبيل إلى ذلك ، لقد قطعت طريق العودة يوم ارتضت أن تكون ملكة .

معادلة غير متعادلة .. أن تنال الشهد دون لسع النحل .؟! يا لقسوة القدر .. ما كل ما يتمنى المرء يدركه ..!!

طال السفر والغياب .. طُوى الكتاب .. غادر الطائر المقدس دوحةَ الجسد المسجى . لحظة فارقة أرهف من الشعرة ، أسرع من النسمة ، بعدها يصبح الإنسان الحى .. الجميل .. الجليل .. الفاعل .. الفاهم .. اللطيف .. الحبيب .. الأمين .. يُصبح جثة هامدة .. رمة متقيحة ، تزكم الأنوف وتدعو إلى الخوف ، وتجلب الغثيان !

الأم الثكلى تشق الجيوب وتلطم الخدود . نساء الحى يصبرنها . الجنازة تبدو حارقة ، بيد أن كل باك ينعى همه ويندب حظه . الأب الحزين ركب حماره وذهب إلى معبد « عين شمس » يطلب حضور أحد الكهنة لتحنيط جثة وحيدته . كاتب المعبد يساومه الأجر ، بعد فصال منهك كان الأجر صاعين من الحنطة وأسورة من الفضة ، وعنزة إكرامية له ، حتى يسعف تدبير الكفن والطيب ، ويعمل على أن تدخل الجثة إلى المعبد يوم « الأربعاء » المبارك عند « إيزوريس » إله العالم المظلم .

فى ذات اللحظة الأسيفة وصل الحبيب والطبيب . كيف حدث هذا

أيها الإلـٰه « رع » ؟ أين من كانت تشع فى الكون سناء وتفيض على الدنيا بهجة ؟ لم هذا أيها الإلـٰه العادل ؟ لم أكن أريد متاعا أو ثروة ، ولم أبغ سلطانا أو جاها ؟ كيف ينهار البناء فى لحظة ، ويتحطم الأمل فى رعشة ؟ أيها العالم أنت خرافة .. خرافة .. أيتها الدنيا أنت وهم سخيف .. سخيف ..؟! ما قيمة الحياة إذا لم نحياها بالحب مع من نحب ..؟ ما فائدة أى شيء فى الوجود .. والعدم يغتال الخلود ..؟ ضاع كل شيء بذهابك .. لا حياة لى بعدك يا بت ـــ جبت .

ـــ تماسك يا بنى ولا تفقد شجاعة قلبك وحكمة عقلك .

ـــ ما فائدة أى شيء إذا خسرتَ كل شيء ؟ أجبنى أيها الحكيم .. هل تقدر أن تتفاهم مع خسة الأعداء وقد جربت حلاوة الأحباب ..؟ هل تقدر أن تعيش فى مرارة الخيبة وأنت تعرف سبيل الصواب..؟ لعلكم لم تعرفوا الحب بالمفهوم الجديد الذى عرفناه نحن شباب اليوم أيها الأب .. لقد كانت أول ما تفتحت عيناى عليه ، من وحيها عرفتُ لغتى بلاغتها ، ومن جمالها عرفتُ سر الجلال .!!

كانت الأمل والسلوى .. ثم فجأة ضاع كل شيء .. بعد كل هذا تقول لى .. أصبر .. كيف .. ولماذا ..؟ خبرنى تكلم .. قل شيئا .. أى .. أى شيء ..؟!

ـــ أوافقك يا بنى على كل ما قلت .. ولكنى موظف فى المملكة ، علىّ أن أقدم تقريرا مكتوبا عما جئت من أجله .. لذلك لابد من رؤية الجثة .

رفع الحكيم ملاءة سوداء ، كانت تغطى سريرا من جريد النخل ، ترقد عليه الجثة المسجاة . كم رأى من مرضى ، وشاهد من موتى .. لكنه

يشعر أنه حالة غريبة . بدا الوجه ذا ملامح ساحرة ، وطلعة بهية ، وفتنة لا شرقية ولا غربية .. تباركت يا « آتوم » لا شك أنك خلقت « جبت » هذه على نحو لم ولن تخلق مثله . حقا كنت أجاملك بالصمت يا سنوحى . لكن لا يعرف قسوة الجمر إلا القابض عليه .. لك الحق كل الحق أيها الشاب النقى أن تكفر بأى شىء .. بل بكل شىء ، إذا فقدت مثل هذه الحبيبة الفريدة .. أمس ما كان أسعدك بأمنيتك .. واليوم ما أتعسك بقدرك ..!

تحسس الحكيم شعرها .. أزال الليل عن النهار .. أشرق الوجه الملائكى .. لم يتحول شىء إلا بعض أورام تحيط بجفونها . أحس وهو يلمسها كأنما يضع يده على محراب مقدس ، لأول مرة يدرك — حقيقة — أن للجسد البشرى حرمة خاصة . ما أغلى قيمتك أيها الإنسان .. يا محور الكون ، ولكن بعض الناس لا يعلمون .

شىء ما ذكر سنوحى بقلادة حبيبته .. تحسس موضعها على صدره .. غير أنه تردد للحظة هل يعيدها .. لتدفن معها .. أم يظل .. محتفظا .. بها .. تذكارا .. ورمزا ..؟ الحكيم يده أمام الأنف ، أمسك معصم اليد ، وضع أذنه على الصدر .. على القلب .. ثم رفع الجفن بهدوء وشفقة رغم الصديد والأورام . أخذ يتحرك بسرعة ولهفة فى القاعة الضيقة ، حتى يتلافى مصطبة من الطوب الأخضر وبعض جرار وسلال .. بدأ يدلك الذراع . يهز الجسد .. يضغط على الصدر .

— سنو .. سنوحى أيها الإنسان الطيب .. أبشرْ .. أبشر .. ما زالت الحياة تدب فى الكيان الجميل . أحضر سلة الأدوات الطبية . فليكف

العويل .. وليصمت البكاء احتراما لعودة الحياة إلى « جبت » وبعث الروح من جديد .

كسر الحكيم بصلة حمراء كبيرة .. قربها من أنف الفتاة المغمية .. طلب قدحا من الماء ممزوجا بالعسل ، حتى يبل ريق المريضة ، ويعطيها بعض حيوية وقدرة على الحركة . أخذ الظلام يبعد بطيئا .. بطيئا .. عن عينى بت جبت . كان الحبيب العائد أول شخص رأت بصيصا من النور عليه . حاولت أن تنهض فلم يسعفها الجسد الهزيل والقلب الضعيف والروح المغترب . دون أن تعى مساحة الزمن أو هول الحدث تمتمت فى رقة رهيفة :

— ها أنت ذا تعود أيها الحبيب الضال .. تعال إلى .. تعال .. ضع يدك على قلبى ، حتى يخفق .. وانظر إلى حتى أرى ..!

— لا تتحركى .. لا تنفعلى .. الحركة ليست فى صالحك . هكذا قال الحكيم .

لم يستطع سنوحى أن يتحرك أو أن ينطق بشىء ، بينما أردفت الحبيبة فى همس باك :

— وهل قضى علىّ سوى السكون والخوف .. أيها الحبيب المرتجى .. منذ انقطعتُ عن العمل .. والخروج بالغنم والماعز إلى المراعى ، ولم أعد أكحل العين برؤية الشمس والنيل .. والخضرة والصحراء .. والأهل والجيران .. مرضت .. عجزت .

ركع أمام السرير ، أمسك يدها فى حنان وتوسل :

— أرجوك يا حبيبتى .. هدئى من روعك !

ـــ ثم جاءت غيبتك الموحشة ـــ يا أملى ـــ خشيتُ .. خفت عليك .. ظلم العسس .. لؤم الكتبة .. دهاء رجال البلاط .. حيل البصاصين .. أو .. ألا توفق فى عرض شكايتك أمام فرعون ، فيصيبك سوء أو ظلم .. ذلك أن الغريب ـــ حتى فى بلاده ـــ أعمى ، والضعيف ـــ وإن كان صاحب حق ـــ صوته حبيس مختنق ، لا ظل له ولا أثر . آه .. آه .. إلى .. إلى .. تعال .. تعال .. حدثنى حتى أراك .. حدثنى حتى أرى ..!

وضع يديها بين راحتيه قائلا :

ـــ لن أتركك بعد اليوم يا حياتى .

ـــ كفى مناجاة أيها الحبيبان فقد كدتُ أغار ، اليوم طب .. وغدا حب !

أخذ الحكيم يواصل عمله بمهارة . ابن مصر ـــ أيًّا ما كانتْ صنعته ، صاحب يد عبقرية أمينة ، سرعان ما يعرف الزاوية ، ويصل إلى الرؤية الصحيحة . مزقت ستار الصمت أنات أم حزينة ، بدت تعيسة كأنما حملت ـــ وحدها دون كل البشر ـــ آلام الكون ، قالت نادبة :

ـــ غارت منها الأتراب .. حسدتها الأصحاب .. مسها الجان .. عصا سليمان .

ـــ اصمتى أيتها العجوز الحيزبون .. كفى خرافة .. لا تنطقى بهذا أمام حكيم ، قضى عمره فى بيت الحياة ، يتعلم ويدرس ويمارس . اليوم لا مجال لهذا الهراء . يجب أن يدرك كل مصرى ومصرية أن العلم هو سبيلنا الوحيد للخلاص من كل الأمراض .

ـــ إذن ما علة الأخت المريضة أيها العالم الحكيم ؟

ـــ لقد أصيبت العين برمد شديد ، نتيجة التعرض المستمر لحرارة الشمس والأتربة الرملية . أما القلب فإنه يعانى من فقر دم واضح ، لذلك عجز عن الحركة . ولا ريب أن لسوء التغذية واضطرابات المعـدة وتوترات الأعصاب مضاعفات قوية ، ساعدت على تفاقم العلة وقسوة الأزمة .

ـــ أهذا كل ما فى الأمر ؟

ـــ شيء آخر يا بنى ساعد على مضاعفة المرض .. هذه الفتاة نموذج نادر بين النساء ، يملك نفسا رهيفة ، وروحا لطيفة ، وبصيرة حادة ، لذلك عجز الجسم الكثيف ، عن أن يتسع للروح الشفيف . انظر ألا ترى خصلات شعرها فى حجم عنقها ، وساقها على قدّ خصرها . لا ريب أن « تحوت » إلـٰهة الحكمة قد بذلت جهدا ، لتخلقها على مثال يندر تكراره ، لتكون ميلادا متجددا لحضورها المتواصل فى عالم البشر .

عاد الروح المغترب إلى الجسد المتعب . بدأت العذراء تعى ما حولها . الأم تتابع فى لهفة حركة الحياة تعود من جديد . الشاب المحب تنتفض عروقه ، تلتهب مشاعره ، يحلق بعيدا فرحا يمد يده فيمسك الشمس ، يمط شفتيه فيقبل القمر ، يتمنى أن تدنو له الكواكب فينظمها عقدا لحبيبته ، يريد لها الحياة أبدا . سؤال ليست له إجابة واضحة دائما : ماذا نملك لنعطى من نحب بعد النوايا الطيبة والقلب الأخضر ..؟!

ـــ بعد أن ساعدك العلم على معرفة الداء ، خبرنى ـــ أيها الأب الحكيم ـــ عن الدواء المطلوب . نريد أن نعجل بالليالى السعيدة . صدقنى لم أكد أعرف أى فرح حقيقى فى حياتى حتى الآن ، ولم يدخل الغناء

والفرح بيت أمى الحزين منذ زواجها .

ــ دواء حبيبتك لا يا بنى لا يوجد إلا فى صيدلية الملك . إنها فى حاجة إلى بعض الماء المعدنى ليطهر العين ، وبعض زيت الزيتون ، يغذى القلب ويفتح الشهية ، ثم بعضا من الخمر الملكى المعتق .. فقليل منه يصلح ما أفسده الدهر .. ثم .. (ابتسم وهو يهز كتفه فى مودة أبوية) .. الباقى عليك أنت ..!

ــ على أنا ..؟!

ــ نعم .. عالجها بالحب الدائم والحنان الخصب ، أطفىء لظى القلب والأرض الشراقى ، وسوف تنتج لك حديقة من النسل الصالح .

ــ إذن سوف أحملك رسالة إلى ملكنا العادل ، حتى يتم جميله ، ونقيم الفرح فى ليلة تساوى ألف ليلة .

ازداد الشاب اقترابا منه ، ثم واصل حديثه :

ــ قل له يا مولاى مريضتك لن تشفى إلا أذا أحضرت لها ــ بنفسك ــ الدواء من صيدليتك . وهى لا ترجو إنما تطلب حقها عليك ، فأنت راع ، وكل راع مسئول عن رعيته ، ولو ماتت طفلة على ضفاف بحيرة المنزلة ، فسوف تحاسب عليها أمام الرب الكبير .!

ثم واصلت الفتاة الحديث بصوت هادىء ونبرات واضحة :

ــ قل للملكة أيضا أيها الوالد ــ إن لك أختا مريضة ، ليس من الضرورى أن تعرف أننا إخوة فى النسب ــ وإن كنا كذلك فى الواقع ــ المهم أننا إخوة فى الوطن ، ويجب أن نعى ذلك خاصة فى المحن . قل لها يا أبى .. العروس المريضة تريدك أن تحضرى لها ــ بنفسك ــ فطيرة من

الرقاق المحشو وصندوقا من الكعك المصنوع بالعجـوة والسمسم ، وبعض أدوات الزينة والروائح الطيبة .. ثم ثوبا أبيض وطرحة خضراء وشمعتين كبيرتين .. ولا تنسى مسحوق الحنة ..!

بينما الحكيم يستعد للعودة إلى طيبة .. كانت بت ـــ جبت تحلم بالعرس ، وسنوحى ـــ قد استقرت القلادة على صدره ـــ مثل غريب عاد إلى أرض الوطن ـــ يتأمل الأفق البعيد ..!! (*)

* * *

(*) كتبت بُعيد أحداث ١٨ ، ١٩ يناير سنة ١٩٧٧

الأمـيرة ..
التى ليس لها اسم فى القاموس

(هذه ليست قصةً كما قد يُظن ـــ وإنما هي ترجمةٌ أمينة لورقة بردى ، عثر عليها بالقرب من الأهـرام .. لذلك نعتذر عن غرابة الأسلوب ، وضياع بعض السطور منها ، كما أن نهايتها توحى بأنه كانت هناك ورقة مكملة لم نعثر عليها . وإذا كان فى أسلوبها بعض غرابة ، فالسر فى ذلك يرجع إلى محاولة أن تكون الترجمة صادقة مع طبيعة النص الأصلى) .

(١)

الموقف الأول : خارج إطار الزمان والمكان .

الشخصيات : امرأة تبدو فى عفة السيدة « مريم » وجمال نفرتيتى ، وروعة أفروديت،وبُعد نظر زرقاء اليمامة ،تلبس ثوبا فيـه كل ألـوان الطيف .. وعمرها يصعب تحديده . وهناك ثم رجل فى ملابس الرعاة ، جسده عملاق مثل رمسيس ، جمع بين وسامة يوسف وحكمة سليمان وشجاعة أخيل .. وإن لم يتطهر أحيانا من حيرة هاملت .

ـــ أى هذا الراعى أمينانوس قص على ما رأيته من أحداث فى قريتك خلال ذلك الأسبوع الذى لم أرك فيه ؟

ـــ ما فائدة الكلام يا مولاتى .. أنت تسألين دائما ـــ عن الكلام ..

وأنا أفضل الحديث عن الفعل .. نعم يا مولاتى الفعل حقيقة والكلمة طائر ضال .

(عنزة صغيرة تقترب من الراعى .. فيأخذها بحنان ، كأنها ذات بشرية ...) .

— لم هذه الثنائية .. وهذا الفصل التعسفى يا أيها الراعى أمينانوس .. الكلمة بنت الفعل .. فلا فرق بينهما .

— لكن الفعل يتجدد ويتغير دوما .. فهل تقدر الكلمات على أن تعدِّل الدلالة وتغيِّر الطبيعة بنفس السرعة التى يتغير بها الفعل البشرى !

الأميرة تتأمل الأفق البعيد .. وترنو إلى شمس الأصيل ، غطت الوادى بأشعة لا شرقية ولا غربية .. الذهب فى السماء .. النار فى الشمس .. وعلى الأرض الأنام .. والأغنام .. وفى الصحراء لا نبات ولا ثمر .. مع أنه يوجد الشمس والقمر .. تعطلت إرادة البشر .. أين المفر .. والكلمة سهلة والفعل مات . إن هذا لشىء عجاب .

الراعى يقول لنفسه : لماذا أيها الرب آمون جمعت بينى وبين هذه الأميرة الحالمة .. إننى حقا لا أزور معبدك إلا يوم الموسم .. ولا أقرأ أورادك إلا نادرا .. ومع هذا فأنا لست ممن يعدون فى العصاة الأشرار ، الذين لن تلتقى روحهم بجسدهم بعد الرحيل .. وسوف آخذ إلى قبرى كثيرا من الحنطة .. ولبن الماعز .. ولحم الضأن . لمَ إذن كل هذا أيها الإله آمون .. هذه الغزالة الشاردة الناعمة الرقيقة ؟!! إنه كان يوم ليس يمكن أن ينسى .. طارت عنزتها حين سمعت صوت أغنامى .. جرت ومعها الوصيفة .. كانتا هى وهى تريدان أن تعيدا العنزة الشاردة . هى تلك

الأميرة تفتخر عليّ بأن بعلها الذى يعمل فى قصر الأمير قد اشترى لها هذه العنزة من السودان فى إحدى رحلاته .. ولكن عنزتى مصرية !! عجيب حتى العنز أصبح له جنسية ، لكن هو — أى العنز — لا يقول شيئا ، ونحن الذين نتقول عليه ، أى الأميرة — تريد منى .. أن أقول .. وتنسى أنه فى البدء كان الفعل ..!

(٢)

الراعى هو بنفسه يجلس الآن فى كوخه مع زوجته وأطفاله الثلاثة . الكل — إنهم يتناولون الطعام : حنطة مع لبن ، وبيض مشوى على النار . الراعى صامت .. والزوجة تتابع إطعام الأطفال .. الولد الكبير هادئ مثل أبيه .. والطفل الصغير شقى كثيرا جدا لا يأكل ولا يبقى على الطعام .. غالبا يوقع طاجنه الفخارى ، لذلك ترقبه الأم فى لهفة . البنت تجلس بجوار الأم .. كأنما هى — أى البنت — تريد أن تتعلم منها مبكرا سر مهنة الأمومة . الأم مظلومة .. والبنت مظلومة .. لكن من الظالم فى هذه الحياة .؟

العائلة — أى عائلتك يا أمينانوس — صارت تأكل كثيرا ، ولها احتياجات كثيرة واسعة .. ولا أحد يعمل إلا أنت .. لكن لمن تشكو أى هذا الراعى الفقير أمينانوس ؟.. تعيش فى بلاد تزرع الحنطة والأرز والكتان .. وتربى الماشية والحيوان .. والنيل يستخرج منه الأسماك والحيتان .. لكن رزقك محدود .. وطريقك مسدود .. وأملك فى قصر

مرصود !! ولكن لابد .. لابد لكل بدء !! الأميرة تريد أن أتكلم .. ما أريد هو الفعل . الفعل فصل .. والفصل نصل .. والنصل نصر.

(٣)

(أ)

مُعللتي بالـوصْلِ والموتُ دونَـه

إذا متُّ ظمآنَ فلا نـزلَ القطـرُ

(أبو فراس الحمدانى)

(ب)

إذا كانتِ الأرزاقُ تجرى على الحِجا

هلكنَ إذن مـن جهلهـن البهائـمُ

(أبو الطيب المتنبى)

(جـ)

وتعطلتْ لغةُ الكـلام وخاطـبتْ

عينىَّ فـى لغـةِ الهـوى عينـاك

(أحمد شوقى)

(د)

يـا بائـعَ الفجـلِ بـالمليم واحـدةً
كم للعيـال وكم للمجـلس البلـدى

(بيرم التونسى)

(٤)

الأميرة تمشط شعرها بعد أن أكملت ارتداء ملابسها . نظرت فى المرآة — التى جاءتها هدية من مدينة منف .. وها هى تنظر الآن إليها فى قريتها سقارة . الأميرة فى المرآة .. صارت طائرا .. خرجت من إطار المرآة .. جمع الزمان فى لحظة : الأمس والغد واليوم .

كـان أبـوها أحـد الكهنـة .. ولـدت فى قصـر .. وتزوجـت أحـد رجـال الحاشـية — حاشـية قصـر الفـرعون .. أعطـاهـا كل شيء .. لكن حياة البلاط جعلت نظرته إلى الحياة فيها استعلاء على البشر ، وشك مريض فى الأنثى !!

لكن الرب أعطاها روحا طاهرة ، وعقلا متفتحا ، تريد أن توقع فى كتاب الكون .. تشتاق إلى أن تقوم بدور فى الحياة .. تريد أن تقرأ أسفار التاريخ وكتب الفلسفة ولوحات الفنون . تتمنى أن تشكل قصيدة . فى قلبها حب شديد للبشر .. وفى رأسها عقل مفتوح .

الحياة .. الإنسان ، يا أى هذا الإنسان .. أنت — وليس الملائكة —

الذى علمه الرب الأسماء كلها .. أنت الحرية .. أنت العلم . أنت العمل .. أنت الأمل .. يا للقسوة وأنت أيضا .. النار .. الليل .. الظلم .

(٥)

(أ)

أعطنى حُريتى أطلقْ يدىَّ
إننى أعطيت ما استبقيتُ شىَّ
آهِ من قيدك أدمى مِعصمى
لِمَ أبقيه وما أبقى علىّ ؟
(إبراهيم ناجى)

(ب)

« إلى الذين يؤرِّقهُم الشوق إلى العدل ، وإلى الذين يؤرقهم الخوفُ من العدل . إلى الذين يجدون ما لا ينفقون ، وإلى الذين لا يجدون ما ينفقون .. إلى أولئك وهؤلاء جميعا أسوقُ هذا الحديث » .

(المعذبون فى الأرض .. طه حسين)

(جـ)

« أنا ولدك حوريس ، جئتُ أعيدُ إليك الحياة ، لم يزل لك قلبُك الحقيقى .. قلبك الماضى » .

(كتاب الموتى)

(عمار يا مصر)

(٦)

ـــ أريد يا أميرتى .. وأعرف جيدا ما أ ريد ..

الأميرة ملاك الرحمة .. قديسة لابسة طرحة .. ملكة عليها التاج .. أم تحمل الوليد .. أخت تشد حبال الخيمة .. صديقة تعرف معنى الصديق .. عالمة وعلمى مثل علمها !! الأميرة .. لا هذا ولا ذاك ، وهى كل هذا وذاك .. إنها إنسانة ، تعيش لكى تبنى .. وتبنى من أجل أن تعيش . تعيشى يا مصر .. يا أم الكوخ والقصر.

ـــ أيها الراعى الحكيم أمينانوس .. أتعرف سر حيرتك .. غربتك ـــ لا تحزن ـــ سبب مصيبتك ، لقد علمك رعى الأغنام الحكمة الخرساء .. والصمت الميت .. صرت كأنك شاة فى القطيع . أو لست تعرف أننى لا أدرى معنى هذا البكاء النبيل الذى يصدره نايك الحزين ؟ الصمت موت .. والكلمة صوت . تكلم تجد نفسك ويأتى فعلك .

ـــ لكنى كلمت نفسى كثيرا ..

ـــ الكلمة لا تؤثر إلا إذا سمعت .. الفكرة الحبيسة جنين مجهول حتى تولد .. الكلمة الفاعلة كالطفل الشرعى يعرف أبويه .

ـــ فيك شبه من أمى .

ـــ لا .. ليس كثيرا .. أمك طيبة .. لكن ليست طاهرة .

ـــ يا لقسوتك .. !!

كان يريد أن يقول يا لأنانيتك وظلمك .

ـــ أمك لم تعرف غير أبيك .. ومن يدرى ماذا كان هو الحال الذى

هى سوف تصبح عليه .. إذا وجدت رجلا أفضل منه .. بل أى رجل والسلام .

ــ ماذا تريدين ..؟

ــ أعرف من الرجال أكثر مما تعرف أنت من الغنم .. وأعرف عنهم الكثير .. ولكن الخيوط لا تتشابك .. والخطوط لا تتداخل .

ــ يعنى ماذ ؟

ــ لا أحب الشرح .. فاللغةُ عاجزةٌ والفعلُ واضح .

(٧)

(أ)

يموتُ الهوى منّى إذا ما لقيتها

ويحيـا إذا فـارقتها فيعـودُ

(جميل بن معمر)

(ب)

إذا الشعبُ يومًا أراد الحيـاة

فلابـدَّ أنْ يستجيبَ القـدر

(أبو القاسم الشابى)

(جـ)

«إن السيفَ قاطعٌ حقا للألسنة والرءوس ..

ولكنه ليس بقاطع فى المشاكل والمسائل » .

(توفيق الحكيم .. السلطان الحائر)

(٨)

أول ما نبدى اليوم نصلى على النبى ، نبى عربى سيّد ولد عدنان ..
وبعد الثناء على طه الرسول أنشأ الراوى يقول :

بعد أن طال الحوار بين الراعى والأميرة ، أدرك أنه لابد له أن يفكر — بصوت عال — فى مصيره . إن دوام الحال من المحال .. وفى الإمكان تغيير كل ما كان .. لقد أدرك أن الفعل أساس الفكر ، وأن اليد لاتقدر أن تصفق وحدها .. فبدأ يعيد أغنامه إلى أصحابها . لم يكن له إلا خروف وشاه تركهما لأسرته .. ثم مضى يعد للأمر الجديد عدته . قبل أن تشرق عليه شمس عهد جديد .. قال للأميرة مودعا :

— رغم ما بيننا من حواجز وسدود — أحترمها وأجلها — إلا أننى أراك أقرب إنسان لى .. لقد عرفت لغتى بلاغتها منك ، واستمدت إرادتى قدرتها بك .. أيتها السيدة العظيمة عاهدينى على أن أناقش معك كل ما يجد فى طريقى .. وأن ألتمس منكِ الدافع والأمل .. فأنت الثورة والوطن ، وأنت الحمى والسكن .

نظرت إليه فى كبرياء الواثق جرأة النبيل وحياء الكريم :

ـــ بشرط أن تعود ظافرا .. أولا تعد !!

(٩)

(أ)

« إذا فهمت جملة فإن هذا يعنى
أنك قد فهمت لغة .
وإذا فهمت لغة فذلك يعنى
أنك قد أصبحتَ خبيرا فى التكنيك .. »

(وتن ستاين)

(ب)

أنـــا إن قَّــدرَ الإلٰـــــه مماتى
لا ترى الشرقَ يرفعُ الرأسَ بعدى

(حافظ إبراهيم)

(ج)

يا عم يا صاحب المقات
خيال مقاتك مات .

(عبد الرحمن الأبنودى)

(د)

منين أجيب ناس لمعناة الكلام يتلـوه

موال شعبى .. (أدهم الشرقاوى)

(١٠)

ولبست الأميرة أحلى ثيابها ....

وكان أن طلعت الشمس فى موعدها ....!!(*)

---

(١) كتبت فى فبراير ١٩٧٧ ــ نشرت فى مجلة « الكلمة » صنعاء (اليمن) العدد ٤٣ يونيو ١٩٧٧ ــ مجلة « الهلال » القاهرة يونيو ١٩٨٠ .

القطـار ..
يسير بسرعة نحو الشمال

ـــ آسفة يبدو أننى مضطرة لكى أشاركك هذا الصالون .!

ـــ بكل سرور ..

حتى يخفف من حرجها أردف :

ـــ هذا قطار عام .. لكل من يقطع تذكرة الحق فى ركوبه .

حمل عنها حقيبة الملابس .. كانت من قماش أحمر به كروهات سوداء .. وكان معها حقيبة ملونة من الخوص يبدو أنها ملأتها من منتجات أسوان المحلية مثل التمر .. والفول السودانى .. والشطة . وضعها بجوار الأخرى على الشبكة . بقيت حقيبة ثالثة من الفبر لونها بمبى فاتح .. وضعتها على الكرسى أمامه .. وجلست بجوارها حتى لا تكون فى مواجهته مباشرة .

الساعة تقترب من الرابعة مساء ، من خلال زجاج النافذة .. كانت الحركة صاخبة فى محطة أسوان .. بين مسافر .. ومودع .. الركاب أخلاط كأنهم فى يوم القيامة .. صعايدة فى ملابسهم الشعبية التقليدية .. سيدات من أهل الإقليم فى انتظار القطار القادم إلى الجنوب .. سوداوات وضعن فى ملابس أكثر سوادا تضاعف من قتامة الوجه .. وتوحى بفقر الحياة .. والعزلة عن .. كل ما يحدث فيها !! شاب جامعى مسافر .. أطال شعره .. بدأ يكثر من التدخين .. سواح من أوربا .. وأمريكا .. يسيرون بملابس صيفية رغم أن اليوم هو العاشر من ديسمبر ١٩٧٥ .. وهذا يعنى أن فصل الشتاء بدأ يدق الأبواب .

الشمس .. تخترق أشعتها زجاج النافذة المغلق .. بينما القطار يبدأ

فى الرحلة نحو الشمال .. نظر إليها من خلال الجريدة .. كانت إحدى عينيه تنتقل فى الجريدة .. بين أحداث لبنان وأنباء القتال فيها وبين النظر إليها . كانت أميل إلى القلق والتردد .. لكنها تبذل جهدا لتبدو فى قمة توازنها .. قرأ عنوانا آخر .. العالم يقدر رغبة مصر الحقيقية فى السلام العادل !! اشتد سير القطار .. بينما المرأة .. لا يدرى هل هى فتاة أم سيدة .. بدأت تتصرف بطبيعة تخلو من أى تكلف . خلعت البالطو .. بدت أكثر رشاقة ــ المصرية أجمل امرأة فى الوجود .. أليس كذلك يا جدتى نفرتيتى ..؟ هناك أشياء عظيمة تدل علي خلود مصر .. النيل .. الآثار .. جمال النساء .. ولكنه راجع نفسه .. والرجال كذلك ؟

ــ تذاكر .. تذاكر ..

سبقت هذه الكلمات الكمسارى قبل أن يدخل الديوان . ناوله التذكرة .. التى كانت فى الجيب الخارجى لجاكتته الكحلى، وهى تبحث فى البالطو والحقيبة يبدو عليه اللهفة.تبحث دون جدوى ..

ــ تذاكر يا هانم .. أمامنا عمل كثير ..

سألها فى هدوء:

ــ كيف قطعت التذكرة ..؟

ــ كانت معى استمارة .. أخذها الناظر .. ثم أعطانى التذكرة وضعتها .. أين ..؟ أين يا أمينة ..؟

عرف اسمها دون سؤال ..

ــ نعم .. أين وضعت التذكرة يا أمينة ؟

أخيرا اتضح أنها وضعتها فى حافظة النقود .. بينما كانت تعطى الشيال أجره على حمل الحقيبة .

أخذ الكمسارى التذكرة .. ونظر فيها .. ثم مد يده بها .. دون أن يحدد من صاحب التذكرة .

ـــ هل يمكن أن أضعها مع تذكرتى .. حتى لا يحدث ما ..

ـــ آسفة .. أفضل أن أدبر أمورى بنفسى .. لا أحب الاعتماد على أحد ..!

إجابة غير مشجعة .. هكذا قال لنفسه .

نظر إليها كانت عيناها عسليتين .. وجهها بدرى .. شعرها أسمر مسترسل ناعم .. أذناها من غير قرط .. الحواجب مهذبة من غير إثارة ، وجهها جميل يوحى بالثقة .. لكنه لا يشجع على الكلام .. هكذا بدت له .

راودتها الرغبة فى التدخين .. ولكنها تريثت . نظرت من زجاج النافذة .. يا سلام يا مصر .. النيل والخضرة والصحراء والسماء ، الأربعة لا فاصل بينها . شجرات النخيل تجرى كأنها راقصات باليه . بدأت الشمس تميل نحو الأصيل .. يا سلام يا مصر .. مصر التى فى خاطرى وفى فمى .. أحبها من كل روحى ودمى .

بينما كانت تبتسم فى نفسها نشوى بجمال الطبيعة كان يرقبها فى صمت .. فقد كانت هى الأخرى .. بالنسبة له مصدر نشوة من نوع آخر .

ذكرته الآثار بسيجارته المفضلة « كليوباترة » .. تردد ثم قدم لها العلبة قائلا :

ـــ سيجارة .. يا أستاذة ..

سحبتها دون تردد .. بينما سألته :

ـــ لم تدخن ؟

ـــ لا أستطيع أن أحدد السبب ولكنى أجد لذة .. هذا يكفى !

كانت تلبس فانلة حمراء .. وبنطلونا أسود .. وضعت ساقا على أخرى فى رشاقة وهى تقول :

ـــ يكفى على أى شىء ..؟

ـــ اسمعى يا ...

ـــ آنسة أمينة !

ـــ اسمعى يا آنسة أمينة .. بالمناسبة .. اسمى طاهر عمر مهندس فى السد العالى .

ـــ تشرفنا .

ـــ أنا رجل عملى .. أفعل ما أشتاق إليه مـا دام لا يسىء إلى الآخرين ..!!

كان يود أن يقول لها إن السيجارة .. رمز لأشياء كثيرة يتمنى الإنسان أن يختلى بها .. فى السرير .. فى المكتب .. فى الشارع .. دون أن يقول له أى أحد .. عيب .. لماذا هذه معك ..؟

نعم يا سيجارتى .. أنت الشىء الوحيد الذى أقبله متى أشاء .. أدخنه متى أريد ..! يا سلام يا عبد الوهاب « أحب عيشة الحرية » .

أضىء المصباح .. بدأ النور يقوى .. بينما الظلام يشتد فى الخارج .. تاهت الصحراء .. وغابت النخيـل .. حتـى القمـر لم يظهـر بعـد

.. قطعت الصمت قائلة :

ــ اسمى أمينة أحمد .. أخصائية اجتماعية فى مدرسة البنات ..

ــ أهلا يا افندم .. عمل عظيم .

كان يريد أن يقول .. يا سلام على الشغل الفاضى .. الهندسة .. سهر ونار وتعب .. لكن فى النهاية فيه نور .. ما حكاية الأخصائى ؟ مشاكل .. وإنشاء .. وكلام ..واعتراف . لا .. لا .. كلام فاضى . نظر إليها صامتا .. كأنما لا يريد منها أن تزيد فى هذا الموضوع .

ــ أكيد فيه متعة يا هانم !

ــ من أى مريخ أنت .. ؟!

ــ أفندم ..

ــ لا يوجد يا سيد عمل ممتع .. كل الأعمال مرهقة .. إنها مثل الزواج بشرط أن تمارسها بذوق ومرونة .

ــ آسف .. دراساتى الأدبية والاجتماعية صفر على الشمال ، وتجاربى العاطفية محدودة ــ كانت فلسفته دائما : يسقط الحب ويحيا الجنس . ولكن ما هو الحب .. لم يدر حتى الآن رغم أنه خطيب فى المرحلة الرومانسية .. والخطيبة ستكون أول من يلقى فى القاهرة ــ إنى راغب فى المعرفة الحقيقية .

ــ ولكن أتسمح لى أن أسأل كم سنك الآن ؟

ــ ثلاثة وثلاثون سنة .. ثلث قرن يا هانم ؟

ــ يا خسارة .. أنا كان عمرى .. ربع قرن .. خمسة وعشرون سنة ، لست حساسة مثل أى حواء من ناحية السن .

فتح باب الصالون دخل بائع الكازوزة .. يلبس جلبابا مخططا قذرا .. وطاقية صوف داكنة .. يصيح .. كوكا بيبس .. أيوه يا فندم .. أفتح ..

نظر إليها .. اعتذرت قائلة :

ــ أفضل الشاى .

شكر البائع بعد أن أعطاه سيجارة حتى لا يطيل البقاء .

بدأت تواصل الحديث بينما تخرج علبة سجائرها ..

ــ تفضل ..

نظر إليها وهو يبادر بإخراج علبته شبه محرج .

ــ لا تتردد .. كشرقى محافظ .. يجب أن تقبل تحية المرأة دون حرج كما تقبل هى تحيتك .. كلنا فى الحياة بشر !

ــ لم لا نعود إلى حديث العمل والزواج ؟

ــ ما زلت قوى الذاكرة .. وهذا شىء تحسد عليه !

ــ كثير من الناس يرون الدنيا متعبة .. مرهقة ، والعمل شقاء ونكد .. والزواج .. مشاكل والتزامات .. والرجال متعبون والنساء خائنات .. ولكن ..

ــ ولكن ماذا ..؟

ــ كل هذا تخريف .. وعبط .

ــ نعم .. ؟

ــ إنها مثل هذه السيجارة ــ رفعتها وأخذت نفسا عميقا ــ كل الناس يقولون إنها ضارة .. حتى الأطباء .. رغم أنهم أكثر المدخنين عددا .. وأكثرهم شراهة . ولكن إذا عاملت أى شىء فى الدنيا ــ مثل

السيجارة — على أنه متعة .. ستجده كذلك .

— فكرة عظيمة ولكنها تحتاج إلى مناقشة .

— وأنا أكره المناقشة .

نظر إليها شاردا وهو يمتص فلتر السيجارة مستمتعا،كأنه يدخن لأول مرة .. شعر بلذة كأنه يمارس متعة ذات طعم غريب .. حلو !!

انتزعته من شروده قائلة :

— أتسمح لى أن أعزمك على فنجان شاى فى عربة البوفيه ..!

أحس كمن أصابه تيار كهربائى .. كانت مبتسمة كالبدر .. ما أجملك يا أمينة .. لم أر فى حياتى امرأة أروع منك .

— على أن أعزمك على سندوتش خفيف .

كانت تبحث فى جيب البالطو عن مناديلها الورقية البمبى .. بينما يأتى صوتها من الناحية الأخرى ..

— ما دمت موافقا على المبدأ .. لم تناقش التفاصيل .. كن واضح القصد .. ودع الجزئيات الصغيرة لذكاء من تتعامل معه .

ألقيا نظرة على الحقائب المغلقة .. وضعاها على المقاعد حتى لا يشغل المكان أحد أثناء غيابهما ..

مرا على غرفة النوم فى طريقهما إلى البوفيه .. حتى قطار الصعيد مجتمع طبقى فيه كل المستويات . كانت تتصرف بخفة ونشاط حتى لا تترك فرصة للمسها بدعوى أنه يساعدها فى الحركة والانتقال . مرا فى عربة النوم بسائح أوربى عجوز بينما زوجته مسندة رأسها على كتفه ، وأمام السائحين كان شيخ يبدو أنه موظف فى الأوقاف ذو بطن ورأس كبير،

يغط فى نوم عميق .. فوق يا مولانا .. القطار يسير بسرعة وأنت نائم !!
ثم استطرد فى الحديث إلى نفسه إلى الأمام يا طاهر .. إلى الأمام .. أنا على استعداد لأن أقاتل العالم كله .. أن أفتح الدنيا بشرط أن تقنعنى امرأة .. بأنها إنسان .. لا يفكر بأعضائه التناسلية .. « لكن دا عشق الجسد فانى .. وعشق الروح مالوش آخر » .. ومنين .. « منين أجيب ناس لمعناة الكلام يتلوه ..» .

وصلا أخيرا إلى عربة البوفيه .. جلسا متجاورين .. العربة مزدحمة . بدأت تتأمل العوالم حولها .. الدنيا واسعة .. ولكنها ضيقة مثل الحق .. يا خسارة يا سيد طاهر .. أضعت عمرك فى تعلم الكهرباء .. ومع ذلك يبدو أنك لم تر النور الحقيقى .

أفاقت على صوته يقول :

ــ ماذا تأكلين ؟

ــ أحب الطعمية السخنة ..!!

ــ بكل أسف غير موجودة ..!

ــ إذن آخذ طبقا من البيض .. وقطعة جبن رومى ..

يا بنت « باب الخلق » تفضلين الجبن الرومى .. سبحان الله ..!

نظرت إليه سائلة :

ــ أنت خطيب ..؟

ــ نعم .

أدرك أن الدبلة فى يده .. كما هى فى يدها شاهد على أنهما فى طور الخطوبة . تمنى كوبا من البيرة الساقعة تبرد من حرارة الموقف .

— ولكن هل عرفت الحب يوما .. أعنى هل أحببت ؟
أحس كأنما هو غارق فى بحر ..!
— لا أعرف للحب معنى ..
أجاب ببساطة بينما انفجرت فى ضحك،كاد يثير انتباه الجالسين فى المائدة القريبة .. ثم قالت وهى تغالب بسمة فيها ذكاء وبراءة :
— إذن يرحمك الله ..!
— يعنى ..!؟
— لا يعرف قيمة الحياة .. من لا يعرف معنى الحب الحقيقى .
— إننى خطيب موفق .. تحبنى خطيبتى .. بل تركت رجلا آخر من أجل .. من أجلى ..
قالت لنفسها من أجل أن ماهيتك أكبر يا عبيط .. فهمت ؟
نظرت إليه فى شبه تحد ..
إحساس غريب بدأ يحتويها .. أحست أنها أستاذه .. أمه .. شىء ما .. يعادل هذا .. قالت :
— نعم نحن لا نعرف سوى الحب الضرورة .
— وما هو ..؟
سألها فى سرعة .. وسذاجة .. أقرب إلى البراءة .
وضع الجرسون أمامها طبق البيض والجبن الرومى .. وأمامه وضع الخبز والأطباق وأدوات المائدة .. بدأت تمسك السكين ثم قالت .. وهى تقطع البيض :

— نحب الأب .. ونحب الأم .. هذا فرض .. ونحب الزوج .. والأبناء .. والإخوة كل هذا حب الضرورة .. حب مثل المقررات القومية فى المدارس نذاكرها .. ولكن لا نحس لها بطعم ..وبمجرد أن نتقيأها على ورق الامتحان ننساها .. ننسى الأسرة بمجرد الخروج من البيت .. وننسى الزوج بمجرد الخروج إلى الشارع ..

كانت كلماتها طلقات رصاص .. كم تمنى كوبا من البيرة ؟

— ولكن لم ..؟

— لأن كل هذه العلاقات قدرية .. بالصدفة .. لا اختيار فيها .. سوف تصبح زوجا .. وأبا .. ولكن يا خسارة ..

أحست أنها تقسو عليه .. كان البرىء يعالج إحساسا حقيقيا بالمرارة والحيرة ..

تفلسفى كما تريدين .. لكنك فى النهاية .. أنثى .. يا ابنة الذين .. كلهن عيوشة .. ومع ذلك كان يحس أنه أمام امرأة ذات نكهة خاصة ..!!

— ولكن .. أنا الذى خطبت مُنى .. اخترتها دون نساء العالم ..

يا غبى .. وهل تدرك أنى لا أعرف ذلك .. ولكن ألم تخترها لأنها عبلة الأرداف .. أو ممتلئة الصدر .. أو بدرية الوجه .. ولكن هل اختبرت عقلها .. فكرها .

لم يجد لديه قابلية لمواصلة الأكل .. ادعى أنه شبع .. كان أمامه وجبة من نوع آخر .

— آسفة .. على الإزعاج .. قل لى نكتة أحسن الحكاية أصبحت

تراجيدية .

جاء الجرسون بكوبين من الشاى .. أعطته سيجارة وأخرجت ولاعتها الأنيقة وأشعلت له السيجارة .

أحس أنه أمام إنسان جدير بالإحترام .. وأنها أمينة وليست أمة .. هكذا يجب أن تكون المرأة .. أو ملعون أبو الدنيا !

أدرك بذكاء رجل الأعمال أن المبادرة دائما تكون في يد السائل لا المسئول .. لم لا يجرب الهجوم .. والسؤال .. أنها مجرد فصيحة على الفاضى .. لأنها درست فى كلية الآداب .. لماذا جعلوا للآداب كلية .. لكى يقرأ الطلبة شعر الغزل .. وروايات الحب .. والعقد النفسية .. والفلسفة السوفسطائية .. واللغات الأجنبية .. هل هذه تستوجب كلية .. ولكنها الحياة يا صديقى .

— هل تعرف أن تقول نكتة ؟

— اسمعى يا ستى .

— نعم .

— واحد اتجوز واحدة بنت كبابجى، ليلة الدخلة وجدها فرشت السرير بقدونس ..!!

انفجرت فى الضحك .. وقالت :

— يا كباب على كده ..

نظر إلى فاتورة الحساب .. ثم أخرج المطلوب .. وقال لها هيا بنا .. ثم قامت .. أمسك يدها .. فلم تمانع .. سارا كأنما كانا صديقين من زمن .. وأخيرا وصلا دون أن يقصدا وقد تشابكت الأيدى .. وصارا

أكثر قربا .

جلست .. ثم جلس بجوارها .. فلم تبد حرجا .. قال لها :

ــ أتلعبين الكوتشينة ؟

نظرت إلى الساعة .. فإذا بها تقترب من منتصف الليل .. ثم أجابت كالمذعورة !

ــ نعم ..؟ مهندس وتلعب كوتشينة ..؟ الإنسان يجب أن يلهو على قدر قامته .

ــ هذه تسلية .. مجرد تسلية بريئة .

ــ ما دخل البراءة والخبث هنا .. أفضل أن أعمل .. أو أتفسح أو أقرأ .. أو أنام .. أو أثرثر مع شخص له فكر .

سكتت .. لحظة ، ثم قال :

ــ هل تقرأين الجرائد ؟

ــ وماذا أقرأ فيها .. إنها نسخة مكررة حتى فى الحوادث اليومية .. متى تصبح الصحافة .. قادرة على تقديم ثقافة حقيقية .. متى يا مصر .. يا أم الدنيا .. يا أول من عمل تمثالاً فى العالم للكاتب .. يا مصر .. لا يدور الكون .. إلا إذا أمسكت الزمام . أنت مركز التوازن بين الشرق والغرب .. متى يا أم الدنيا تستعيدين توازنك ..؟ رأى فى وجهها الملائكى وجه مصر ، ورأى فى وضوح فكرها .. آمالاً وأهدافا .. واسعة عريضة .. يا سلام يا أمينة .. أنت عظيمة والله ..

أحست بالبرد .. بدأت تنكمش .. سرعان ما عرفها .. وسرعان ما أحبها .. قدرها . فى لحظة صار يفهمها بغير ما حد .. كأنما كانا

روحين ممتزجين فى الأبد . قام .. وألبسها البالطو . وجدها راغبة فى النوم .. سكت . بدأ الكون صامتا .. نامت أمينة فنام الكون ..

القطار ما زال يسير بسرعة . ظهرت أضواء قنا .. ما شاء الله يا عبد الرحيم يا قناوى .. من يدرى ماذا كنت .. لكنك اليوم .. ولى ..؟! يا قناوى .. يا قناوى نظرة ..!!

الدنيا ظلام كحل .. حركة المسافرين هادئة . بدأ القطار يتأهب للقيام .. بينما النوم يتسلل إليها . أمينة هذه فى نقاوة الملائكة .. وطهارة العذراء . أحلفكن يا بنات الحور .. لا توقظن أمينة حتى تشاء . وجه برىء وفم مبتسم .. من هذه التى تتمنى العين رؤيتها ..؟! أمينة الآن مثل أبو الهول صامتة بينما توحى بكل الحكمة . ليتنى أحفظ أناشيد سليمان لأعزفها للحبيب حتى ينام كيف يشاء .. يا من يعطنى مثل أمينة .. ويأخذ .. يأخذ أى شىء .. بل كل شىء ..!!

بدأ يسمع صوت الكروان .. لم أنت حزين .. يا طائر الصعيد ..!!

أخذت تستغرق فى نومها .. اشتد ميلها عليه . تمنى أن يضمها إليه وتنام .. حتى يبرر أى حركة منه أو منها بعدم الوعى .

وتدفقت حركة تيار اللاوعى .. وبدآ يلتصقان .. لم تكن هناك رغبة جنسية .. إنما هناك رغبة إنسانية .. رغبة الإنسان يحس فى الوحدة والبرد بشدة الحاجة إلى الآخر .

مالت عليه .. كان بجوار الشباك .. طوقها بذراعه اليسرى . كانت

قريبة إلى قلبه.خشى عليها أن توقظها دقاته المتتابعة . كان القطار يمضى .. واللحظة تعدل دهرا .. يا أمينة . لأول مرة يدرك سمو ما فى الإنسان .. كان يقدر أن يقبلها .. وأن يضمها إلى صدره .. أن يمتزجا .. روحا وجسدا .

مالت عليه أكثر .. ما زال القطار يسير نحو الشمال بسرعة .. كان وجهها يشع بملائكية غريبة . فى الليل لما خلى .. يا جارة الوادى .. مضناك جفاه مرقده .

كانت يده تحوطها .. بدأ يشد أطراف البالطو .. كلما امتدت يدها أعادها إلى موضعها . كان يجد سعادة الأم ترعى الوليد ..! تمنى أن يكون مراهقا لتكون لديه القدرة على المخاطرة ... يا بنات الحور .. يا ملائكة الليل .. أمينة منكن لا توقظنها حتى تشاء !!

الآن فقط عرف أن لكبر السن ميزة .. إنه فى سن الرشد . يا أيها الزمن الوغد .. أنا إنسان نبيل .. كيف لا .. وهذه أمينة بجوارى ؟ أحس بمشاعر مرهفة .. بدأ يدرك أنه كان ينبغى أن يكون خطيبا لأمينة .. لا لمنى .. لكنها الأقدار الساخرة .. من قال إن الدنيا تعطى الحلق لمن له أذنان .. إنها الحياة ..!!

ولكن هل نستطيع فى الحياة أن نغير المسار ، رغم أننا ندرك أن الوصال فى إطار العلاقة الشرعية غير ممكن .. من يدرى ..!

يا عقد الكبت .. والقهر الاجتماعى .. والتربية الخاطئة ..!

أنوار الفجر .. فجر الخميس الحادى عشر من ديسمبر .. بدأت تستيقظ فى حياء متكاسل . لكن الفجر لابد أن يأتى . مع إشراقة

الأمل .. بدأ يظهر النهار .. كأنه يولد هناك بعيدا .. لكنه لابد أن يصل .
أخذ يرتب شعرها الجميل الناعم المسترسل وقد تطاير على وجهها .
أحست حركة يده باردة حانية .. هادئة مطمئنة . لم يغادرها الإحساس بالأمان . نظرت إليه فى حنان مدت يدهاحول وسطه .. ازدادت اقترابا منه .. رفعت وجهها .. بينما بسمة حالمة تنظر إليه .

لم يعرف .. ماذا حدث .. وما شأن المعرفة بهذا .. إنها قبلة تساوى العمر كله .. ما سبق .. وما سوف يأتى . ما أجمل المرأة حين تصفو .. وحين تريد . إنها حينئذ .. كالقمر يستمد ضوءه من الشمس ولكن ليسقطه على الأرض . أرأيت أنها إضاءة جدلية تعطى حين تأخذ .. يا حبيبى كل شىء بقضاء .. لم أدر ما طيب العناق على الهوى حتى ترفق ساعدى فطواها .. هل رأيت الدهر يتجمع فى لحظة ..؟! أفاقا .. وقرص الشمس مطل من بعيد .. كأنه يستأذن فى بدء يوم جديد . لم يقل أحدهما للآخر شيئا .. فما حدث لم يكن بإرادة أى منهما .

أزال برودة الصمت ــ بينما يدها تبتعد عن خصره ــ قائلا :

ــ صباح الخير .

ــ الخير .. صباح .. أين نحن الآن ؟!

ــ على وشك الخروج من المنيا .

ــ بعد ثلاث ساعات تقريبا نصل إلى القاهرة .

ــ إن شاء الله .. بالسلامة .

ــ لا شك أن محمدا سيكون فى انتظارى .

ــ من .؟!

ـ خطيبى .. !!

ـ هل يمكن أن نتقابل ثانية ..؟

انتفضت واقفة .. وهى على وشك الخروج من الصالون :

ـ أفضل أن أغسل وجهى .. الآن .

استعاد تنسيق ملابسه .. بينما هى أمامه تبدو بعين الرضا غاية فى الكمال . أعطته قطعة ملبس .. وبينما كان يضعها فى فمه أعاد عليها السؤال .. فقالت بهدوء :

ـ لم تريد أن نتقابل ثانية ..؟

نظر إليها فى استنكار .. بينما استطردت ..

ـ نحن مثل قطارين .. قريبين .. ومتوازيين .. لكن كلاً منا فى طريق .. قد يتجه أحدنا شمالا .. ويتجه الآخر جنوبا .

ـ ما معنى هذا .؟

ـ لا تكن رومانسيا .. ولا تفكر فى أن تغير مجرى حياتك لمجرد صدفة قدرية .. حاول أن تبحث عن سعادتك الحقيقية داخل الدائرة التى تتحرك فيها بالفعل .

ـ كل الأنهار تصب فى البحر .. والبحر ليس بملآن ..

ـ ليس المهم أن يملأ البحر .. لكن المهم هو أن تستمر كل الأنهار فى الجريان .. فى مسارها الطبيعى .!!

بدأت معالم القاهرة .. تبدو من بعيد .. يا أم الدنيا .. متى يستقر القطار ويعرف كل مسافر أين يجب أن ينزل ..؟

أخذ كل منهما يستعد وحده للنزول .. فى انتظار كل منهما نصفه الآخر . بينما كان يحتضن منى خطيبته بعد أن تناسى كل شىء ، بناء على طلبها ، لدرجة أن كلا منهما نزل من باب مغاير .. كان لا يستطيع أن ينسى كلمتها .. كلمة أمينة الخالدة .. « إنها الحياة يا صديقى » .!![*]

(*) كتبت فى نوفمبر ١٩٧٦ — نشرت فى مجلة « الكاتب » — القاهرة العدد ١٩٠ — يناير ١٩٧٧

باب الخلق

ـــ تذاكر أبونيه .

ـــ اشتراك .

قلتها للكمسارى محاولة أن أجد لنفسى مكانا بين الزحام .. الكتب فى يدى مبعثرة .. خلف ظهرى الحقيبة المعلقة على كتفى .. أحاول أن أجعلها أمامى ، خوفا من أبناء الحلال الذين سرقوا كيس النقود والبطاقة منذ أيام .. سُرقت البطاقة .. مش مهم .. لن يستطيع أحد أن يسرق الشخصية ..!! حرارة الصيف المبكرة تعكس رائحة عرق تزكم الأنوف .

شغلت بنفسى عن الزحام .. يوم قلق .. لم أرض عن نفسى .. كيف سمحت لمحمد زميلى أن يتجرأ على .. أغلق ـــ صباح اليوم .. ونحن نسير فى حديقة الجامعة ـــ كتاب تاريخ الأدب الذى كنا نتناقش فيه وقال بلا تمهيد :

ـــ أحبك .

ـــ حب أيه .. أحنا لسه بعيد .. إنت غير موجود لغاية ما تشتغل .. وتبقى عضو مشارك فى كل حاجة .. كل حاجة .. لا تكن ساذجا .. الزمالة ليست صداقة .. وليست حب .. مفهوم .

انتبهت على حركة مد وجزر بين الزحام لوقوف الأتوبيس على محطة ، بينما الكمسارى يصيح :

ـــ تذكرة يا شاويش .

ـــ أنا بوليس ..إنت مش شايف ؟

ـــ شايف إنك فى درجة أولى .. ولازم تقطع نصف تذكرة أو تدخل الدرجة الثانية .

ـــ يظهر إنك كمسارى جديد .. إنت مش عارف .

ـــ مش عايز أعرف حاجة .. عايز قرش أو نوقف العربية ؟

ـــ مش دافع .. أنا بوليس .. القانون ..

ـــ هى حصلت القانون كمان ..!

صاح الكمسارى .. صفارة طويلة تستغيث .. تتلوَّى كالدخان المحترق .

شيء ما ذكرها بالبيت .. بالوالد .. الحاج عوض .. تاجر مستريح .. له مبادىء لا ينزل عليها التخفيض .. الأدب فضلوه على العلم ـــ جواز البنت سنة ـــ الأصول .. كل شيء له أصول ـــ لازم يعرف كل حاجة قبل ما تتم ولكن ..؟ إنه ينتظرها الآن مع الأسرة ليبدءوا الغداء .. فيد الله مع الجماعة ، واللقمة الهنية ..

اقتربت العربة من القصر العينى .. سيدة عجوز اقتربت من حاجز الدرجة الأولى ، خلفها شابة ريفية على كتفها طفل أخفت معالمه القذارة .. وطاقية تحجبه عن العالم . سألتها العجوز فى لهجة عذبتها :

ـــ القصر العينى فين ..؟ ابنى عيان فيه .. بيعمل عملية .. جايبه له رز معمر .. بيحبه يا كبدى .. يا ترى جرى لك إيه يا أبو عوف .. أنزل لك إمتى ..؟

نزلت بعد أن ساعدتها .. فجأة هز سكون العربة صوت صعيدى يصيح :

ـــ أمال .. الدجى فين ؟

ـــ العربية مش بتروح الدق .

قالها الكمسارى فى هدوء وهو يعدّ الباقى لزبون .

ـــ هيه الحلزونة دى مش نمرة عشرة واصل .

ـــ إيوه .. بس من غير شرطة .

رد فى سذاجة بريئة :

ـــ طيب .. حطوا شرطة لاجل النبى .. ونروح الدجى ، أخوى ساكن فى سليمان جوهر .

حاول شاب أن يفهمه سر الشرطة التى غيرت مسار الأتوبيس . بدأ الزحام يخف قليلا . أوه .. سخيف يضايقنى .. يقف بجوارى أحيانا .. وأخرى خلفى ، أنظر إليه لأفهمه أننا أبناء جامعة واحدة .. وعيب ! لكن الغبى مصرّ ..!

حل قدرى نزل راكب .. جلستُ بجوار النافذة .. الهواء يعبث بشعرى .. وفكرى .. تذكرت ما حدث اليوم فى محاضرة الأدب .. شىء ما يجعلنى أذاكر هذه المادة بروح الهواية .. و .. التحدى ، لابد أن يعرف هذا الأستاذ بالذات أنى طالبة ممتازة .. من نوع آخر .. سمح لى بالتعليق على النص فاندفعت :

ـــ شعر « ألفريد دى موسيه » يوضح ثلاث حقائق :

الأولى أنه لا يمكن فهم النص الأدبى بعيدا عن فهم الإطار الاجتماعى

الذى أنتجه ، وهذه حقيقة أنت صاحب الفضل فى تعريفنـا بها .. والحقيقة الثانية ــ وهذا رأيى الشخصى (ثم ازداد صوتى انفعـالا وحدة) أن هناك فى مجال العواطف شيئا اسمه الحب العذرى أو المثالى ، الثالثة .. أن حديث العاطفة وشعر الحب ، هما المجال الذى يفتح أمام الشعر أبوابَ الفن بلا ضفاف .. والرابعة ...

قاطعنى وهو ينظر من خلف منظاره السميك ، يمتص فلتر سيجارته كأنه يقبلها :

ــ ألم تقولى ثلاثا فقط ..؟!

أحسست برغبة قوية فى مواصلة حديثى .. فى أن أثبت له أنى نوع آخر من الطلبة لى رأى ، يمكن أن يعارض فكره ويحاوره هو ــ خريج السربون .. وأنا بنت الحاج عوض .. بنت باب الخلق .. قلت :

ــ آسفة الحقيقة الرابعة .. أنه لن يستطيع النقد على الرغم من المحاولات الجادة لتقنينه أن يجرد الفن من سحره الأسطورى ، سيظل الخيال فى الفن منبع جمال لا ينضب ولا يحد .. وتقدم العلم يؤكد دائما أن الإنسان فى حاجة إلى الفن بقدر حاجته إلى التكنولوجيا الحديثة .!

أحسست بنشوة النصر تبرد قلبى ، جلستُ دون أن أستأذن ، فقد عودنا حرية الحركة فى المحاضرة .. المهم أن تكون حاضر الذهن .. صاحيا ..!

ــ التحرير مين عايز ينزل ..

انتشلنى من أفكارى صيحة الكمسارى ، وفرملة قوية من السائق ، وأصوات ميدان قلب القاهرة الذى لا يهدأ ولا ينام .

نهاية هزلية لموقف اليوم .. دق الجرس .. وخرج الأستاذ دون أن يعلق .. وألقى على نظرة فيها مزيج من برودة الآيس كريم وغضاضة عصير الليمون .!

مرقت العربة من باب اللوق .. وقمتُ أستعد للنزول .. لقد تأخرت عن موعد الغداء مع الأسرة .. الجماعة .. وقف الأتوبيس لأنزل وحيدة إلى « باب الخلق » بينما صوت بارد يقبل مسامعى :

عطشـــان يا صبايا

دلـونى على السـبيل ..![*]

(*) كتبت فى فبراير ١٩٧٣ ــ نشرت فى مجلة « روز اليوسف » ــ العدد ٢٣٤٧ ــ ٥ يونيو ١٩٧٣ .

فندق العالم الجديد

كانا يسيران فى شارع كانتون بجزيرة كولون ، بينما مرت ثلاث فتيات ، حيت إحداهن بإيماءة وابتسامة ، فرد عليها بنانا فونج :

ـــ صباح الخير يا عزيزتى .. صباح الخير جميعا .

نظر إليه أحمد فإذا فرحة طفل تبدو فى عينيه . واصل بنانا الحديث :

ـــ إننى رجل يا صديقى ، وإن الله قد خلق النساء للرجال ، لذلك أحبهن طاعة لحكمته .

ـــ كل النساء ..؟

ـــ كلهن بلا استثناء ، فكل واحدة ـــ مثل الفاكهة ـــ لها مذاق خاص !

ذكره بما قال « بيرون » : أود لو اجتمعت نساء العالم فى واحدة ، فأقبّلها وأستريح ..!!

ـــ إذن لِمَ لا تتزوج ؟

أطلق ضحكة من الأعماق وقال :

ـــ الزواج يعطينى واحدة .. وأنا أريد نساء العالم .

ـــ هذه فلسفة أم ..؟

ـــ قلة حيلة ..!

ابتسم الرجلان اللذان كانا فى العقد الرابع من عمريهما . حاول أحمد أن يهون عليه الأمر قائلا :

ـــ سوف تحل التكنولوجيا كل مشاكل الإنسان المعاصر .

ــ مشكلة الإنسان الوحيدة يا صديقى هى .. المال .. المال .. المال .. !!

ــ هذه أيضا سوف يجد العلم لها حلا .

ــ لا أظن ذلك .. لكننى أتمناه .

صاحا فرحين فى عبارة واحدة :

ــ تحيا النساء .. يسقط الفقر .

استقل الصديقان سيارة تاكسى إلى « حديقة المحيط » . كان أحمد رغم ثلاثة الأيام التى قضاها بمستعمرة « هونج كونج » ، لا تفارقه الدهشة من مناظرها الجميلة . عجيب أمر هذه البلدة ، فهى ثمرة لخبرة الشرق والغرب مجتمعَين ، فيها من الشرق بساطته وجماله ، ومن الغرب حضارته ونظامه . الشوارع ليس فيها بوصة غير مستغلة فى شىء ما ، ومع هذا يندر أن تقع حادثة مرور . وسائل المواصلات متنوعة لا تحصى : عربات الركشو ، التى يجرها فقراء الصين .. القوارب الشراعية والبخارية .. الأتوبيس والتراموای ذو الطابقين .. التاكسى .. السيارات الخاصة آخر صيحة . ملاحظة تشد الانتباه وهى أن عجلة القيادة على اليمين . المدينة تبدو مثل سوق عظيم .. فيها البيوت ناطحة السحاب . المحلات التجارية والبنوك والفنادق .. كل ما تطلبه تجده . المفارقة الشديدة فى كل شىء .. سمات البشر .. مستوى المعيشة .. نظام المساكن .. البحر والأرض .. الخضرة والجبال .

ــ هيا يا عزيزى وصلنا .

كانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة صباحا ، حيث تفتح

الحديقة أبوابها . كانت من الداخل محتشدة بالخضرة ، والزهور والبشر .. البشر هنا على اختلاف مستوياتهم وأجناسهم جاءوا يبحثون عن الراحة والمتعة .. حتى العجائز . في الطريق إلى (التليفريك) مرّا على أقفاص دبّ ملون .. وطيور مائية .. ونافورات مياه . تمنى أحمد أن تعيد الرحلة بواعث الشعرَ التي ضعفت في نفسه .. ثم صاح :

— إلى التلفريك .. ها قد وصلنا .

— لا تتعجل .. لحظة ، حتى تأتي فتاة جميلة .

أخذا يستعرضان الداخلين إلى أن جاءت فتاتان بصحبة سيدة عجوز ..

جره من يده قائلا :

— إلى الأمام أيها المصرى العزيز .

ركبوا الطائر العجيب الذى يتسع لستة أشخاص ، تكون طائراً فى الجو ، وأنت ترقب كتاب الكون من أى ناحية نظرت إلى الأفق ، بدأ بنانا يتحدث معهن بلغة « كاتونيس » الوطنية ، المستمدة من لغة صينية أم تسمى « مندرين » . شُغل أحمد بالمنظر عن أصوات لا يفهمها . كان يبحث فى الأفق المفقود عن معنى مجهول . جمال الطبيعة يُوحى بأن هؤلاء الناس يخلقون أشياء من لا شىء .. وفى بلاده يُحيل الناسُ الأشياءَ العظيمة إلى لا شىء ..!!

كان أحمد إذا تناساه صديقه ، مثل الأطرش فى الزفة . وصلوا إلى الناحية الأخرى ، ساروا متقاربين متباعدين فى آن واحد . أدرك أحمد حرج صديقه . هذه الأم لا شك من الجيل القديم محافظة مثل أى أم

شرقية ، كانت نظراتها تحمل قدرا من الشك غير المفصح عنه . قد تختلف لغات البشر ، لكن المشاعر تكشف كل ما يضمره الآخر نحوك . فى الزحام افترقوا دون قصد .

قال بنانا معلقا ، وهو يلبس قفازه :

ــ آسف يا صديقى .. رحلة بلا فتاة حديقة بلا زهور .

ــ ما عليك .. يكفى جمال المنظر .

وصلا إلى ناحية أخرى ، حيث توجد سلالم إلى مكان منخفض عن سطح الحديقة .. كان المكان فى مستوى سطح بحيرة صناعية تسكنها حيوانات بحرية مختلفة ، تراها بوضوح عبر نوافذ زجاجية . عادا ثانية .. وبينما يصعدان سأله بنانا :

ــ ألا تستطيع الغناء .؟

ــ نادرا .

ــ أريد أن أغنى .. أرقص .. أجرى .. أخلع ملابسى ..!

ــ فى هذا الجو البارد !

ــ حين تخرج فى نزهة استمتع بكل لحظة ، حتى تعوّض ما فقدتَ من مال ووقت ، وتنشط جسمك ومشاعرك .

ــ معك حق .

ظهرت البحيرة الصناعية من أعلى ، وقد امتلأت بالطيور والحيوانات ، يعيش كل منها فى منطقة خاصة به . الزحام يدل على أن الجميع هنا محبون للحياة بشكل عجيب . أمر يلفت النظر .. البشر يبدون فى سن أصغر من حقيقتهم ، لا سيما النساء .

— الناس عندكم يا بنانا يبدون دائما فى سن أصغر .

— ربما كان للمناخ ونظام الحياة والتغذية أثر فى ذلك .

— النساء عندنا عكس ذلك دائما .

— لا تنس عوامل الكبت .

— أى كبت تعنى ..؟

— كل الأنواع يا صديقى .

تناولا بعض المشروبات الساخنة حتى تعوض برودة الجو ، ثم توجها إلى مسرح يتسع لألف متفرج فى الهواء إلا من مظلة تقى من المطر .. أمامه بحيرة صناعية أخرى . كل فرد فى حاله ، لا يحاول أن ينظر إلى سواه .. أو أن يصيح أو يرفع صوته حتى الأطفال .

— سوف تشهد عرضا لا ينسى .

— كل ما أراه هنا لن ينسى .

بدأ العرض .. ثلاثة مدربين .. واحدة أوربية .. ورجلان وطنيان . فتحت بوابة .. وخرجت ثلاثة من حيوان الدولفين . على صوت الموسيقى ، بدأ كل حيوان يقف أمام مدربه ، ثم حيت الحيوانـاتُ الحاضرين فى منظر رائع . أمسك كل مدرب طوقا . بدأ الدولفين يقفز داخله عدة مرات . أخذت الحيوانات تلعب مباراة بالكرة الطائرة . تعددت الألعاب بمهارة فائقة لمدة ساعة مرت كأنها لحظة ، رغم برودة يناير والرذاذ الخفيف المتطاير من البحيرة .

* * *

مع المساء عاد أحمد إلى « فندق العالم الجديد » الذى يملكه بعض أثرياء فروا من الصين الحمراء . الفندق مدينة بأكملها ، به ما يقرب من ألف حجرة ومطعم ومرقص ومكان للشرب وآخر للقمار ، فى الطابق الأول حديقة وملعب ومسبح . الفندق يقدم لك ماتريد على أبسط أسلوب وأحدث طراز . فى الحجرة رأى أن كل ركن له وظيفة . خلف السرير نافذة بعرض الحائط تشرف على المدينة من الدور السابع عشر . أباجورتان على حافة النافذة قرب السرير تشعلهما سلسلة فضية أنيقة ، بينهما تليفون يصدر موسيقى راقصة حين تطلب . قرب السرير توجد لوحة مربعة .. بها ساعة فسفورية بأرقام واضحة ، أزرار لإطفاء أى لمبة فى الحجرة أو وإشعالها ، زرار لإدارة التلفزيون الملون أو إغلاقه ، مايك تتحدث منه لغرفة الخدمات إذا تعطل التليفون ، زرار لاستدعاء الخادم ، زرار للتكييف البارد وآخر للتدفئة ، زارار آخر يصدر موسيقى . الدولاب مثبت داخل الحائط .. أبوابه مزركشة كأنها لوحة فنية . ثمة مكتب عليه دليل التليفون .. دليل الفندق .. أقلام .. ورق .. ظروف .. مِشط .. أزرار ملابس .. كباسين .. إبر .. خيط مختلف الألوان . ليست هذه حجرة ، إنما نموذج جديد يحلم به الإنسان ليستريح من ضروريات الحياة .. لكن متى وكيف .؟!

نزل يتجول مساء فى المدينة . جمال المكان وسحر الجو ، جعلاه يرى النوم حراما خلال إقامته القصيرة فى هونج كونج — أو الميناء ذى الرائحة الطيبة كما يدل معناها بالصينية . حقا ما أطال النوم عمرا .. من قال إن

القراءة وحدها مفتاح المعرفة ــ مضى يحدث نفسه وهو مبهور بهذا المكان الفريد . إذا أردت أن تعرف الحياة فعشها لتدرك أحى أنت أم ميت .؟! الدنيا حديقة لابد أن تجرب كل أزهارها . دخل يشترى رباط عنق من أحد المحلات التجارية التى تسد واجهة كل بيت ، حتى ضاقت بها المدينة فأقاموها فى أدوار تحت سطح الأرض . المحل حافل بكل شيء .. العامل أو العاملة حين يعرف ما تريد .. يقدم لك أكثر من صنف حتى يغريك بالشراء .. ويكتب لك الفاتورة بعد إجراء الحساب على آلة يدوية لا تخطئ ويدفع الحساب نيابة عنك فى الخزينة ، ثم يغلف لك بأناقة ما اشتريت . حمد الله على أنه يحمل تذكرة العودة .. فمهما أنفق فقد أمن سهولة العودة .

الشوارع غاية فى النظافة والهدوء . لا أحد يتدخل فى شئون الآخر . أثار شجونه بعد طول حرمان منظر العشاق ، الشاب تحت ذارعه فتاته ، يسير بها فى محبة وتفاهم . اقترب منه رجل باكستانى أسمر ذو أسنان بيضاء ، همس فى أذنه :

ــ فتاة جميلة .. أتريد يا سيدى ؟!

ــ ماذا ..؟

ــ عندى فتيات جميلات .. وسيدات راقيات .

ــ وضح بالضبط .

ــ يوجد فتيات صغيرات .. خمس عشرة .. ست عشرة .. عشرون .. وسيدات .. سيدات أنيقات .. من أصول عريقة .

ــ من أى جنسية .؟

ـــ كل ما تريده موجود .. إذا زرتنا فلن تنسى .. ستظل زبونا دائما .

اطمأن الرجل إليه بينما تفرس فى وجهه الخالى من أى انفعال ، فبدا له سمسارا محترفا .

ـــ يوجد هنديات .. صينيات .. يابانيات .. أوربيات .. أمريكيات .. حديقتنا فيها من كل زهور العالم ..!!

ـــ الأجر .. كم ؟

ـــ ليس كثيرا بالنسبة للمتعة التى تحصل عليها .. سوف تدفع مائتى دولار هونج كونج ، أو أربعين دولارا أمريكيا ، أو عشرين جنيها إنجليزيا ، أى عملة معك سوف نقبلها .

ـــ هذا كثير .

ـــ الزهور عندنا فاتنة .. كل واحدة منها تحمل شهادة طبية .. جرب ولن تندم .

دفعته الرغبة فى الاكتشاف والمغامرة إلى أن يسير إلى النهاية . فى الطريق إلى بستان الفاكهة الآثمة ، مشى يحدث سيجارته نادما على تهوره .. لكن ماذا لو رأى .. ليست على الرؤية جمارك أو ضرائب .!

عرجا فى حارة جانبية . نزلا إلى أسفل فى سرداب خافت ، كأنما يغوصان فى مستنقع لا نهاية له . كان يجد فى الهبوط رمزا لموقف غير إنسانى يسير إليه متألما ، غير أن روح المغامرة قضت على تردده . دخل الشقة فإذا الأضواء خافتة يغلب عليها الأحمر المثير .. أصوات موسيقى راقصة تخدر المشاعر . برزت نسوة شبه عاريات ، كأنما أردن أن يبرزن أسلحتهن الرشيقة ..!!

صاحت سيدة يابانية ، وهى تقرص الرجل فى مؤخرة ظهره :

ــ جئت يا فان .. يدك فارغة مثل قفاك .

نظرت فوجدت أحمد ، فقالت باسترخاء :

ــ هالو يا عزيزى .

ــ هالوا مدام .

ــ أنا .. عذراء يا حبيبى .. وسوف تشهد على ذلك إن كنت من نصيبى . أطلقت ضحكة متقطعة ..مثيرة .

جاءت سيدة أخرى وطنية .. قالت وهى تسلم عليه بدلال :

ــ من أى بلاد الدنيا الجميلة .. أنت ؟.

ــ من بلاد العرب .

ــ أوه .. بترول .. !

ــ لا .. أنا من مصر .. من بلاد الأهرام والنيل .

ــ عندكم جِمال .؟

وقف صامتا ، يتأملها عارية .. متجملة .. فى دهشة .

ــ أريد أن أركب .. أركب الجمل .. يا حبيبى .

ضحكت مبتذلةً ، تريد أن تسقط الكلفة بينها وبين زبون جديد .!!

ظهرت فتاة أخرى أصغر عارية إلا من مايوه شفاف . جذبته من يده وقبلته من خده قائلة :

ــ أهلا .. أهلا بك يا عروسى .

تقدمت فتاة هندية لفت ذراعها حول عنقه ، فتطايرت رائحة عطر نفاذ . قالت وقد بدا أثر الحناء فى يديها :

ـ لا .. إنه ليس لكِ .. ولا لكِ .. هذا قريبى نحن جيران من قديم .

ثمة فتاة أوربية ذات أنوثة طاغية ، ترتدى مايوه بكينى ، تدخن سيجارة وترقب الموقف فى صمت ، تبدو واثقة من نفسها . جلست وقد التفت الساق بالساق . أحس فتنتها من النوع المتحدى ، يجذب الزبون إن كانت له عينان . كانت مثل الإمبراطورة تنتظر فى هدوء ما سوف تنتهى إليه معركة هى الفائزة فيها ، دون .. دون أن تقول شيئا .. أو تفعل شيئا .!!

كان كورة فى ملعب تتقاذفها اللاعبات ، إنه ـ بحكم طبيعته ـ شاعر ، يفضل الجانب السامى فى المرأة والمحور الروحى فى العلاقة . ماذا جرى له الليلة .. بل الآن .. لا يدرى ؟! هناك مواقف فى حياة الإنسان لا يدرى كيف وصل إليها .. أو تخلص منها .. من تلك المواقف ما حدث لأحمد الليلة . أسلم ساقيه للريح و لم يتوقف عن العدو ، حتى أغلق على نفسه باب الغرفة . ماذا قال الناس حين رأوه يعدو كالمطارد ..؟!

أحس وهو يرتمى على السرير ، كأنما قد تخلص من كابوس مزعج . أدار التلفزيون ، لكن صوت الداخل كان أعلى . حاول أن يبرر لنفسه ما فعل . ماذا جرى له .. ؟ لقد رضى جادا أو هازلا أن يذهب ، وما رآه شىء طبيعى بالنسبة لهذه الأماكن .. فما الذى جعله يفرّ هاربا .. ؟! أراحه أنه هرب من الموقف أيًّا ما كانت الوسيلة المنقذة . النوم أفضل علاج للهموم ، لكن كيف السبيل إليه .. كيف .. كيف ..؟! حتى النوم فى هذه الدنيا تحتال .. تحتال حتى تصل إليه .

* * *

فى الصباح نزل إلى شارع سالزبورى ، يبحث عن بنك ليصرف بعض شيكات سياحية . الغد أول فبراير وقد وافق بالمصادفة إجازة عيد رأس السنة الصينية . دلف إلى « مصرف أمريكا غير المحدود » . عندما اقترب من الباب الزجاجى انفتح أوتوماتيكيا . قاده المدخل إلى سلم يؤدى إلى بدروم سفلى ، حيث صالة البنك . أخذ يبحث عن شباك خاص . لاحظ رجل الأمن ــ من شاشة تليفزيونية ــ حيرته فشك فى أمره ، ثم جاءه عجلا . أبرز الشيك وجواز السفر فاطمأن إليه ، وأشار إلى شباك معين . كل الشبابيك فى البنك سواء .. تتسلم منك الشيك ، وتسلمك النقود دون تعب أو تأخير . معظم الموظفين كانوا فتيات صغيرات .

نظر فإذا فتاة ضامرة قبالته ، حياها بإيماءة فردت بابتسامة . أعطاها الأوراق .. تفرست فيها لحظة ، ثم أعادتها إليه :

ــ لا يمكن صرف هذا الشيك مطلقا .

ــ لم .؟

ــ به تزوير أو خطأ على الأقل .

لعن فى سره صديقا نصحه بألا يحمل نقودا سائلة ، وإنما شيكات سياحية . ماذ يفعل وقد صار على وشك الإفلاس ..؟

ــ كيف .؟

ــ اسمك أحمد حسن .

ــ نعم .

ــ حسن كتبت فى الجواز بحرفين (S) وفى الشيكات بحرف واحد .

ـــ هذا خطأ مطبعى بلا شك .

ـــ من المسئول عنه .؟

ـــ لست أنا .

ـــ ولا أنا .. مع السلامة .. أفسح الطريق لغيرك .

أحس بضيق وهمّ .. ماذا يفعل ؟. يوم نحس .. وقبله ليلة سوداء .. ماذا جرى ؟!.. كانت عشرات الأسئلة تمر بذهنه وهو عاجز لا يجيب . لم يستطع أن يبرح مكانه . أشعل لفافة وظل حائرا فى مكانه . الفتاة ترقبه فى لهفة ورجل الأمن فى تخوف . قالت الفتاة :

ـــ لم لا تذهب يا سيدى ؟

نظرت الفتاة إليه فى إشفاق ، بينما لا يكاد يتبينها :

ـــ إلى أين .؟

ـــ هل يمكن أن يصرفه بنك آخر ؟

ـــ بالطبع لا .. أنت غريب .. نصيحة ، لأنك ضيف فى بلادنا المشرقة ، ابحث عن صديق ووقع له على ظهره ليصرفه لك .

صاح فرحا :

ـــ بنانا .. أين أجدك الآن .؟

ـــ ماذا تقول ..؟

ـــ أشكرك .. سأعود قريبا .

فى مساء ذات اليوم ٣١ يناير ١٩٧٩ .. كان أحمد يستعد لرأس السنة الصينية . بنانا الصديق العظيم .. صرف الشيكات .. وعرفه بالفتاة . وعزمها لتقضى ليلة العيد معهما . فى الثامنة مساء كان أربعة يركبون

باخرة سياحية من مرفأ فيكتوريا ، لمشاهدة جزر هونج كونج وإيردين وكولون من البحر .. بنانا وصديقته توى ، أحمد وفتاة البنك ماى إين . بدت البلدة كأنها ملهى كبير للعالم الجديد .. عالم المغامرين من الشرق والغرب على حد سواء رغم اختلاف الأيديولوجيات . امتلأت الباخرة بالبشر من كل مكان . الضوء خافت والموسيقى هادئة ونسيم البحر يعبث بالسفينة والركاب . تأمل أحمد الفتاة ، كأنما يراها لأول مرة .. مثل حورية من السماء . ما أعجز اللغة حين تحاول وصف الجمال ، ماى إين ــ تعنى بالصينية الطائر الجميل ــ متوسطة القامة لا يشتكى قِصرٌ منها ولا طول . وجهها بدر تزينه قُصة من شعر أصفر ، يمتد على رقبة من العاج وصدر كالرخام . الثديان بيضتا حمامة فى عش هادىء . الفم حبة فراولة . الخدود تفاح ناضج . تعجب أحمد كيف لم يكتب شعرا غزلا من قبل .. ولكن هل سمحت الأيام بمثل تلك الحورية .؟!

قطع بنانا الصمت وهو يقدم أكواب البيرة :

ــ فى صحتكم جميعا .. وفى صحة ماى التى لولاها ما تجمعنا فى ليلة العيد .

ــ فى صحتكم جميعا .. وفى صحة ماى التى لولاها كنت مفلسا .

قالت الفتاة فى وداعة :

ــ لم أفعل سوى الواجب .

قال بنانا ضاحكا :

ــ لولا عُقَدك .. ما رأيناك .. فى صحة العقد الإدارية .. والنفسية ..

والجنسية .. ها .. ها ..!!

ضحك الجميع بينما ابتسمت الفتاة فى حياء .

الجميع فرحون بليلة العيد .. الأضواء حولهم انعكست على سطح الماء ، كأنما تسبح السفينة فى نهر ملون .

قالت ماى وهى تنظر فى الأفق :

ــ سيد أحمد .. ماذا تعمل إذا كان السؤال لا يضايقك .؟

تدخل بنانا ضاحكا :

ــ أرجو أن تخمنى يا عزيزتى .

قالت توى وهى ترفع الكوب عن فمها :

ــ أقول أنا .. أنا أقول .

ــ تفضلى .

نظرت ماى فى حياء:

ــ سلوكك يُوحى بالبراءة ، وحديثك يُغرى بالثقة .. لكن نظراتك فيها حيرة وألم .

ــ عظيم .. وماذا بعد .؟

ــ فى الحقيقة .. فى الواقع .. إنه .. حيث .. كيف : لا .. انتظروا .. دعونى أفكر .. السؤال صعب ــ مضت توى عابثة ــ يبدو لى أنك لا تعمل شيئا .. ولا تصلح لشىء .. ولكن .. نعم .. بلا شك أنت رجل .. ها .. ها .

ضحك بنانا وتوى .. ابتسم أحمد .. ظلت ماى صامتة . كان أحمد يحس نحو الطائر الجميل برغبة جارفة .. فقال لها :

ــ لم أسمع رأيك بعد !

ــ يبدو لى أنك لا تصلح تاجرا أو موظفا .. ربما صحفيا أو رساما .

ردّ عليها مبتسما أحمد :

ــ اقتربتِ من الحقيقة ..

صاح بنانا :

ــ اعترف وخلصنا .

ــ حرفتى لا سوق لها فى هذه الأيام الجافة ، إنها مثل المرأة الجميلة مهرها غال وطريقها شاق .. يا عزيزتى .. إنى شاعر .

ضحكت توى متبذلة :

ــ شاعر بماذا يا روحى .؟!

كانت ماى حريصة ــ لأمرٍ لا تدركه ــ على عدم إحراجه ، فغيرت مجرى الحديث قائلة :

ــ يجب ألا يصرفنا الكلام عن مشاهدة جمال الكون ليلة العيد .

قالت توى فى خفة بعد أن ملأت الكئوس :

ــ فى صحة كل العالم . فى صحة الشعر والحب والسلام .. اشربوا يا أبنائى حتى يعم السلام .. ها .. ها .. سلام .. سلام .. ها .. ها .!!

تبدو المدينة غارقة فى غلالة من الضوء ، امتدت إلى أفق السماء وانعكست على سطح البحر .. ملأ ركاب الباخرة إحساس بنشوة العيد .. ورغبة فى الاستمتاع بالحياة . كانت ماى تشع ببهجة أليفة ، أدركت أن الجميع ينظرون إليها فأرادت أن تقطع نظراتهم :

ــ هذه ليلة جميلة .

ـــ أنت أجمل يا أميرتى .

هكذا رد بنانا بينما لكزته فتاته قائلة :

ـــ من سوف تغازل يا بصّاص .؟

ـــ كل من على الباخرة .. الليلة عيد .. ويجب أن أحيىّ الجميع .. ها .

أول البرنامج عشاء .. الطعام الصينى له مذاق وآداب خاصة . وضعت أطباق الحساء المكون من شربة دجاج وسمك مخلوط بنشا وذرة صفراء وبعض أوراق خضراء لها طعم البقدونس .. المكرونة بالصلصة مع فستق وجمبرى .. الأرز مخلوط ببسلة وشرائح سمك ، تناوله الجميع بالعصوات وفشل أحمد فى كل محاولة لتقليدهم . شعرية بالسكر والفاكهة المسلوقة . المهم فى الطبق الصينى ـــ أيا ما كان ـــ أنه يتكون من ثلاثة أصناف على الأقل .. الشطة والكارى قاسم مشترك . نادرا ما تجد الخبز ، لعل فى هذا سر نحافتهم ..!!

قال بنانا وهو يلتهم المكرونة بالعصوين :

ـــ حظك الليلة من السماء .

ـــ لم ؟

ـــ لأننا فى بعض هذه المناسبات نأكل نوعا من لحم الخنزير والكلاب والفئران .. لكن أكلة اليوم كلها بحرية .

ـــ على كل أنا سعيد اليوم بأمور كثيرة .

نظر إلى طائره الجميل حالما ، بينما تعجب فى نفسه من أمر عالم لا تبدو الحياة فيه منسجمة بأى شكل . الصحيح فى الشرق خطأ فى الغرب ، ما يحلله قوم يحرمه آخرون . ما الصواب وما الخطأ .. هل القيم

نسبية .؟! هذه فلسفة لا طائل وراءها .. الحقيقة الوحيدة الجديرة بالفهم هى منطق اللحظة التى تعيشها . اليوم حق وغدا سراب . لماذا كلما نظر فى وجه ماى ألهمته أمورا لم تخطر له على بال ؟

بدا صوت الموسيقى يعلو ، لم يستطع بنانا صبرا .. صاح وهو يجر فتاته :

ــ بدأ الرقص .. هيا يا شباب .. العالم اليوم كله شباب .. أليس كذلك يا أحمد .. شباب .. شباب .. هيا .. هيا ..

سحب أحمد ماى وانغمسا وسط الحلبة . الباخرة سكرى ترقص على الأمواج .. كل موجة تجرى إثر الأخرى تريد اللحاق بها . النسيم فيه برودة منعشة طهرها جو البحر . ضاع العمر .. وهذه ليلة تعدل العمر . نسى الجميع كل شىء إلا أن الليلة عيد . رغم الزحام كان كل اثنين جزيرة منعزلة . صوت الموسيقى يطرد أشباح السأم ، ونسيم البحر ينبت الآمال الخضراء . الحياة فرحة . من لا يفرح لا يحزن . ومن لا يفرح ولا يحزن لا يستحق الحياة . ما أحلى الليلة .. وما أجملك يا ماى . انتشى الطائر من الرقص فرقد على صدره .

ــ تعبت ؟

ــ لا .. قبلنى لو سمحت .

ملعون فى الأرض وفى السماء من لا يحقق لامرأة جميلة رغبة فى ليلة عيد . قبل غرة شعرها .. جبهتها .. خدها .. فمها .. رقبتها . أحس نبض قلبها يخفق لأول مرة . كانت فقيرة ولم تعرف للحب طعما قبل اليوم . قطعت نصف الطريق من فيتنام إلى هنا مشيا على الأقدام . عاشت فى

صحبة أم عجوز هد حيلها الفقر والحرب والوحدة ، فماتت وتركتها وحيدة . بدت كمن تقرأ أول سطر فى كتاب الحب العظيم . أفاقا على صوت بنانا :

— هيا نتبادل الأوسمة .

— وهل بيننا علاقات دبلوماسية تسمح بذلك ؟

أحس وهى تفارقه لذع الغيرة ورعشة الفقد . تعجب من أمر نفسه إزاء هذه المشاعر . أليس هؤلاء شرقيين مثلنا ؟ ثم ماذا بينه وبينها يفجر ما يعانيه ؟ جرته من تساؤلاته قبلة ملتهبة من فم توى .

— ليلة عظيمة لا تنسى .. يا عزيزتى .

— أنت سر سعادتنا يا سيد أحمد .. من يدرى ربما لولاك ما التقينا .

اقتربت الساعة من الثالثة صباحا ، والمدينة لما تنم بعد . ذهبا إلى حديقة عامة ، كانت ماى تسير معه وقد أحاط كتفها بذراع وصدرها بآخر ، بينما لفت هى يديها حول وسطه . كان يحس — بخيال شاعر — أن الملاك الذى يصاحبه لا تربطه به — فقط — معرفة يوم وعلاقة ليلة . أدرك أن بينهما أشياء مشتركة . العواطف هذه عالم غريب .. غريب . هناك من تعرفه طول العمر وإذا مشيتَ معه تحس بُعدا شديدا .. ومن لأول مرة تلقاه فتشعر أنه توأم الروح وأنك تفهمه فهمك لنفسك .!!

مشت بجواره تشع مودة وصفاء . تمنى أن يتوقف الزمن .. أن يُمحى الماضى والمستقبل من الوجود . استلقت فوق البساط الأخضر على ظهرها ممشوقة القد ، تبحث فى السماء عن القمر الغائب والنجوم

الضائعة . أمسك بحنان إحدى يديها ومسح بيد أخرى شعرها الناعم . أحس وهو ينظر فى بحار عينيها الصافية أن أشعاره تتضاءل أمام بلاغة جمالها . المرأة العظيمة ليست ثرثارة بقدر ما هى ملهمة .. هكذا كانت معه . قال لها مناجيا :

ـ الجو بارد .. أخشى عليك .. لم الحديقة فى هذا الوقت المتأخر .؟

ـ لم تسأل .؟ الليلة عيد !. إنها مجرد رغبة نفس عجزت عن تحقيق أى أمل فى الحياة .. أحسست أنى بك يمكن أن أحقق شيئا .. لست طماعة .. فالدنيا بخيلة .. لذلك حرصت على تحقيق هذه الأمنية المتواضعة .. أن نجلس سويا .. وحدنا .

قبل يدها .. ونظر إليها قائلا :

ـ ماى .. هل تتزوجيننى .؟!

ـ كيف تفكر .؟

ـ أنت الأمل .. الإلهام الذى جئتُ أبحث عنه .. مجرد وجودك بجوارى ، يحرك فى النفس كل ما أتمنى .!

ـ أرجوك يا عزيزى .. أجّل كل ما يحتاج إلى مناقشة إلى وقت آخر .

نظر إليها متعبدا .. يا حبيبتى .. لقد عشتُ طول العمر أنتظر هذه اللحظة .. أنتظرك .

ـ يبدو أنك تعشق المجهول .

الصمت بين المحبين ـ أحيانا ـ أقوى من أى بيان . كان يضمها إليه ، وقد سيطر عليه إحساس كالنهر المتدفق بحبها . لقد عاش عمره مناضلا من أجل الحرية والشعر . ما ظن يوما أنه سوف يرى المرأة على

هذه الحالة . نسى كل شىء إلا أنه أمام إمرأة ، وجد فيها كل ما يتمنى . بدأ يرى بزوغ فجر العيد على وجهها .

أول فبرير .. كان عيد ميلاد قلبه . قال لها :

ـــ هيا بنا .

ـــ إلى أين ؟

ـــ كما تريدين .

ـــ سأذهب معك إلى آخر ..

ـــ آخر الدنيا ؟

ـــ أولا يكفى إلى آخر النهار .

استيقظ فى الصباح قبل أن تقوم . ما أجمل شجرة الورد حين ترتوى بعد طول عطش . الحب يعطى ماء الحياة معانى أخرى . لم يكن أحمد يعرف للحب .. بل للحياة طعما إلا حين ضمها إلى قلبه . جُمع الزمان وما فيه فكان يوم لقاك يا طائرى الجميل . سأل نفسه إذا كان المغناطيس يجذب الحديد بالضرورة .. فما الذى يجذب امرأة إلى رجل ؟ هذه الفتاة بلا شك .. ملهمتى . حبيبتى .. أمل حياتى .

شده موكب أطفال يعزفون الموسيقى ، وينشدون الأغانى ، وقد ارتدى بعضهم قناع أسد ، ينتهى برداء ملون طويل .. كانوا يفعلون ذلك حتى يخيفوا الحيوانات التى تفكر فى الاقتراب من المدينة .. هذا ما تقوله أسطورة صينية قديمة .

أعاد إغلاق النافذة فى هدوء . يا بنات الحور لا توقظن الحبيب حتى يشاء .. حبى فتاة ليست من جنس النساء . كما يتأمل البخيل كنزه ..

والفنان لوحته .. كان يرنو إليها . بدت مثل أرض خصبة ارتوت بعد طول جفاف . تمثال للجمال والبراعة أنت يا ماى . أفاقت على قبلة منه .

ــ صباح الخير يا ملهمتى .

ــ صباح العيد يا عزيزى .. لابد أن تدفع غرامة .

ــ كيف ؟

ــ ضحكت علىّ .. انتهزت فرصة نومى .. كم قبلة أخذت ؟

ــ أنت رائعة .

ــ ما زلت مصرا على تجاهل السؤال .. لكننى سامحتك لا أقدر على غير هذا .

ــ تقدرين على ما هو أكثر ؟

ــ ما هو ؟

ــ أن تتزوجينى فورا .

ــ هل تعرف من أنا ؟

ــ الماضى .. ملك للتاريخ .. ما يهمنى الحاضر والمستقبل ، وهما أنت .. أنت وحدك لا سواك .

شردت فى سماء الغرفة .. كأنما تتأمل سحابة داكنة :

ــ ولدت وسط أصوات القنابل والمدافع .. مات والدى فى حروب فيتنام بلدى .. هاجرت بى الأم إلى هنا .. ثم ماتت . لجأت إلى كنيسة . اعتنقت المسيحية وتعلمت الإنجليزية .. منذ سنة حصلت على الثانوية واشتغلت فى البنك .

صمتت كأنما تسترد أنفاسها ، إذ تسترجع ذكريات غائمة عن حياة الطفولة :

— كنت أعيش فى حى شعبى ، وأذهب مع أمى إلى معبد بوذا فى الأعياد وألعب مع الأطفال .. منذ جئت إلى هنا صرت عجوزا فى العاشرة . الحياة قاسية .. المادة تسيطر على علاقات البشر . الغلاء رهيب .. كل شىء صعب حتى الحب .. مستحيل . الإبحار إلى أى شاطئ .. وهم .. أو خرافة .

ليس الشاعر من يقول الشعر فقط ، بل الذى يحسه أيضا .. هكذا حدث نفسه — سعيدا بما يكتشف من أمور مشتركة بينهما . استطردت قائلة :

— أتمنى العودة إلى الريف .. إلى الحياة البسيطة ، إننا نعيش فى جو مصنوع .. مزيف . آه يا عزيزى سئمتُ حياةً بلا روح .. بلا حب . كم تمنيت العودة .. أو الهروب ..!!

— الإنسان دائما يحن إلى الأصالة .

— و لم لا تقول إلى الطفولة .؟

قررا أن يذهبا إلى قرية صينية للصيادين بحثا عن البساطة المنشودة . استقلا قاربا ضخما مسافة عشرة أميال . أينما وجه نظره .. فى البحر .. فى السماء .. فى الناس ، لا يرى سوى صورتها . وصلا إلى عالم آخر ، ضاعت فيه كل معالم الحضارة والثراء . الناس فرحون بالعيد رغم مظاهر الفقر التى توحى بها بيوتهم وملابسهم وحياتهم . الشوارع ضيقة متعرجة . اشترى لها قطعة شيكولاتة ولنفسه علبة سجائر .

ـــ بالقرب منا معبد صينى . هل تريد رؤيته .؟

ـــ أليس جزءا من المكان .؟

ـ لكن الأمر قد يعرضك للخطر ، فالصينيون محافظون لا يقبلون دخول غريب معابدهم .

ـــ الأمر متوقف على ما ترين .

ـــ لنذهب وليكن ما يكون .. أعلم أن الأدباء مشاعرهم مرهفة ، لا تدرى ما الذى يمكن أن يؤثر فيها .. قد يوحى لك المنظر بشىء .

ـــ معلوماتك جيدة عن الشعراء .

ـــ أعلم أيضا أن ذاكرتهم مثل الغربال أحيانا ـــ يكاد لا يستقر فيها شىء .

ضحكا .. وسارا متشابكى الأيدى . كان المعبد ملاصقا لجبل ، كانت به مناجم ذهب استولى عليها اليابانيون . على يسار الداخل فرن مقدس لحرق الجثث .. بالطبع جثث الأغنياء فقط ، لأن العملية مكلفة . ساحة المعبد واسعة غير مسقوفة تنتهى ببابين : أحدهما على اليمين للدخول ، والآخر يسارا للخروج . الزحام شديد ودخان البخور كسا المكان طابعا أسطوريا . بدا الكهنة وقد ارتدوا ملابس حديثة ، فضاعت فى عينيه هيبتهم . ثمة كاهن يجلس إلى مائدة صغيرة وأمامه بعض نساء يصنع لهن شيئا من التعاويذ والأحجبة . تمثال من الخزف الصينى المذهب فى المدخل لبوذا جالسا ، وقد بدا قصيرا ممتلئ البطن .

ـــ أو تسمح لى .؟

ـــ بم .؟

ـــ أريد أن أعرف حظى .

ـــ لك ما تشائين .

ركعت على ركبتيها أمام تمثال الإله بوذا . كانت تمسك قدحا من الصفيح مليئاً بعيدان من المعدن فى مستوى طوله . حدقت النظر فى التمثال والقدح ، كأنما ركزت انتباهها فى شىء محدد . أخذت تحرك القدح مدة ليست بالقليلة ، والعيدان تعلو وتنزل حتى سقط واحد ، أعطته للكاهن بيد وبالأخرى عشرة دولارات . وقفت تائهة فى دخان البخور ، بينما أحمد يتأملها صامتا . بعد أن طالع الكاهن أوراقه وأناشيده ، رجع إليها يتمتم فى صينية وضح فيها كثرة حروف الشين والغين .

عادت إليه واجمة .. فسألها فى إشفاق :

ـــ ماذا قال لك ؟!

ـــ المركب فى البحر .. والحمامة فى الصندوق .

ـــ ما معنى هذا .؟

ـــ لست أدرى .!

ـــ هل تعتقدين فى مثل هذه ..

ـــ لقد اعتنقت المسيحية وانتهى الأمر .

ـــ إذن لم فعلت هذا .؟

ـــ من أجلك أنت .!

ـــ يبدو عليك الحزن .

ـــ لقد تذكرت طفولتى فى فيتنام .

أراد أن يغير مجرى الحديث فقال :

ـــ أنت فنانة . ما الذى جعلك تعملين فى المحاسبة والأرقام ؟

ـــ ليس كل ما نتمنى يتحقق .

ـــ أنت لماحة .. أحبك . (قبل يدها) .

ـــ أحترم مشاعرك .. لكنى لن أفكر فى الأمر سريعا . الزواج فى بلادنا ـــ بسبب الغلاء والضياع ـــ مشكلة .

ـــ يكفينى وعدك بأن تفكرى .

ـــ سأفكر فيك فقط .. وإن كنت تبدو لى إنسانا غريبا .

من قال إن الحب من أول نظرة وهم .. الحب حقيقة ، لكنه أمر نادر فى هذه الأيام السوداء . الحياة حلوة غير أن البشر يشوهون جمالها . هذه الفتاة ذات العشرين ربيعا ما الذى سود فى وجهها الحياة بهذا الشكل الفظيع .؟!

* * *

فى المساء آثر أن يرقب المدينة من نافذة الفندق ، أضواء متشابكة بددت الظلام . كان طيف ماى يحلق حوله . احتشد لجلسة الوحدة والتأمل ، كأنما الحبيبة معه . تطيب بعطر مدام روشان الفرنسى ، بينما كان يرتشف كأسا من الويسكى الإنجليزى وسيجارة مارلبورو الأميريكية ، ويستمع لمعزوفة موسيقية من أعمال تشيكوفسكى الروسى ، فى فندق العالم الجديد الذى يملكه أثرياء فروا من الصين الحمراء . إنه مصرى يفكر فى فتاة من فيتنام . أحس أن العالم قد تجمع بكل تناقضاته فى هذه البلدة العجيبة . إن العالم على سعته ضيق ، كل الخيوط فيه متشابكة . تختلف النظم والعقائد .. لكن ثمة أواصر قوية

توحد بين البشر .. كل البشر . ماذا لو اتحد العالم فى أمة واحدة ، وتعاون الجميع من أجل سعادة الإنسان . كان يدرك ـ وهو يتأمل قمة جبل سوداء من خلال النافذة ـ أن هذا حلم شاعر .. لكن ألم تكن كل الآمال الكبيرة خيالات متواضعة ..؟!

أخذ رشفة من الويسكى ونفسا من السيجارة واهتز إلى صوت الموسيقى .. وهو يحدث نفسه .. هناك أشياء كثيرة يختلف فيها الشرق عن الغرب ، لكنهم هنا يتفقون جميعا على أن يقدموا لك أحدث نمط للمتعة ، وأقرب طريق للحصول على ما تملك من مال . لا شك أن بنانا كان مصيبا حينما قال إن مشكلة البشر الوحيدة هى .. المال .. المال .. المال .!

* * *

فى حجرة متواضعة بإحدى البنسيونات تح سطح الأرض كانت ماى إين تفكر فى ذلك الرجل غريب الأطوار الذى التقت به .. أحمد حسن ، الذى فجر فى قلبها لأول مرة ينابيع الحب . لم استسلمت له .. هل كانت على حق .؟ ظلت تسائل نفسها دون إجابة . كانت ابنة للضياع وها هى تحب المستحيل . و لم المستحيل .؟ إنه حقيقة .. إنه يحبها حبا حقيقيا .. لكن هل يمكن أن يتحقق الحلم .. كيف ومتى .؟ لا تدرى .. ولكنها تتمنى . استلقت فى سريرها الصغير ، وقد احتضنت الوسادة . النوم الذى طالما ملت منه صعب .. مستحيل فى هذه الليلة . كيف تكون مصر هذه البلاد التى يريد أن يأخذنى إليها أحمد .. هل أجد فيها الاستقرار .. الحياة الآمنة بعيدا عن آلام الحروب

التى فتحت عينى عليها .. هل الناس هناك طيبون لم تلوثهم الحياة والحضارة المادية .؟! مصر أيها العالم المجهول .. هل أنت كما أتمنى ..؟! أحمد أيها الشاعر المناضل هل سيكون حبك طريقا جديدا أم مواصلة لنفس التعب والضياع ؟ مع خيوط الفجر نامت .. حلمت أنها تطير فى مركب ومعها أحمد ، المركب يقطع البحار من بلدة .. إلى بلدة .. لكن أين الطريق إلى مصر .؟ هبت عاصفة لكن أحمد أمسك بالشراع .. تصدى للموج القاتل .. ومشى المركب فى الطريق .. الطريق إلى مصر طويل .. طويل . بين الأهرام كان العرس .. كانت تلبس ثوبا أبيض وطرحة بيضاء .. ثم جاء أحمد على فرس خطفها ، وطار يجرى فى الصحراء .. كلما مر بفرسه فى مكان اخضرت الأرض وفاض الماء . فجأة ظهر قرد أسود خطف الطرحة البيضاء من على رأسها .. وهى تنادى دون أن يبلغ صوتها إليه : أحمد .. أنقذنى .. القرد .. القرد .

* * *

— أهلا بك يا بنانا .. لقد افتقدتك كثيرا . لا طعم لهونج كونج بدونك .

— من أجل هذا الترحيب الحار سأدعوك اليوم لكى نتغذى فى مكان شاعرى .

— أين ؟

— فى برج بيك توورا القريب من ميناء فيكتوريا .

فى الطريق إلى مطعم البرج كانت المدينة تبدو جميلة .. جذابة . البيوت فى الشوارع أو على الجبال .. بين عالية ومنخفضة ، على النمط الأوربى ، وأحيانا على الطراز الصينى بألوانه المزخرفة وسقوفه المثلثة

وحدائقه الغناء . الشارع قد يتكون من طابقين ، وقد يكون تحت بحر أو وسط جبل . خلال كل هذا لا تجد أثرا لحبة تراب أو نفاية من النفايات . الخضرة والزهور فى كل مكان ..!!

كنائس المسيحيين .. معابد البوذيين .. الملاهى والفنادق .. معسكرات الجيش الإنجليزى .. تطل عليك من الشوارع والجبال . الحدائق كثيرة ومفتوحة ليلا ونهارا ، هذه مدينة لا تنام .. كل شىء موجود بها فى أى وقت .. آخر صيحة .. آخر طراز .. فى كل شىء .. كل شىء ، حتى المخدرات وحوادث السرقة !!

— هذا المطعم على طريقة اخدم نفسك .

— عظيم .

— إياك أن تملأ طبقك بالسلطة والنشويات ، ابحث عما خف هضمه وغلت قيمته .

فى أثناء الطعام كانت النوافذ الزجاجية ، تبرز معالم المدينة رغم الضباب الذى يعد بمطر قريب .

— هل يمكن أن آخذ فكرة عن تاريخ بلادكم ؟

— هذا لطف منك يا صديقى .. إنها تتكون من عدة جزر فى جنوب شرق الصين ، أكبرها هونج كونج . وقد استولت بريطانيا عليها سنة ١٨٤١ ، ثم منحتها حكومة الصين بعد ذلك شبه جزيرة كولون وبعض المناطق المجاورة ، حتى صارت المساحة أربعمائة ميل يعيش فيها خمسة ملايين نسمة تقريبا .

— أليس غريبا أن توافق الصين على وجود هذه المستعمرة هنا ؟

— إن بلادنا مركز صناعى وتجارى حر .. يستفيد منه الغرب والشرق على حد سواء . الأموال كثيرة والعمالة رخيصة ، لذلك فقد صارت بلدة تجارية وسياحية من الدرجة الأولى فى العالم رغم صغر المساحة .

— هذا الكون أمره عجيب .

— يا صديقى إذا اتفقت المصالح المادية تعانقت البنادق .

— هل قرأت شيئا فى الاقتصاد السياسى .؟

— كلا ولكنى أعيشه .

أشعل له سيجارة ولنفسه أخرى ثم قال :

— حكمتك البسيطة تشجعنى على أن آخذ رأيك فى أمر يشغلنى .

— آه فهمت .. تريد أن تتكلم عن الطائر الجميل .. يحيا الحب ..!!

— نعم إنها ماى .

— ماذا ؟

— أريد .. أريد أن أتزوجها يا صديقى .

— حسبت الأمر مزاحا فى ليلة تسلية .

— لا .. إننى جاد .

— هذه قضية خاصة ، بل خاصة جدا ، لا يعتمد فيها على رأى أحد ، لكن فقط أريد أن أحذرك ، ليس بالعواطف وحدها يقرر الإنسان مصيره .

— أعلم ذلك جيدا .. لكنك أخبر بفتيات بلادكم .

— المرأة هى المرأة يا صديقى .. المهم أن تجذبك ، وإذا حدث هذا فقد

انتهى كل شىء .. فقط هناك صعوبات كثيرة سوف تعترضك ربما هنا أو هناك .

ــ صدقنى لم أكن أفكر قبل اليوم فى الزواج .. ولا حتى فى الحب ، يبدو أن هذه أشياء لا إرادة للإنسان فيها .

ــ ماذا تريد منى إذن ؟

ــ أن تساعدنى فى إقناعها بالأمر .

ــ سأحاول .. ولو أنى لست متفائلا . لكن دعنى أسألك عن دوافع هذا القرار ؟

ــ يا صديقى العزيز .. لقد وجدت فى الفتاة جزءا من المجهول الذى أبحث عنه فى الحياة والشعر .. لقد رأيت فيها الحب الذى يجعل الفكر يشع والقلب ينبض واللغة تستيقظ .

ــ من الصعب أن ينفصل منطق المرء عن وظيفته ، برأيى أنك خيالى .. وأنك تبرر الزواج كأنك تكتب قصيدة .

ساد صمت بين الرجلين ، كان كل منهما ينظر فى ناحية مقابلة للآخر من خلال نافذة مطعم البرج ، بينما المطر يسقط بغزارة .

قال بنانا وهو يصب البيرة فى الكأسين :

ــ سأبذل ما بوسعى ما دام هذا قرارك ، لكن ..

ــ بعد هذا كله تقول لكن ثانية .

ــ سأذهب الليلة إلى كازينو لوس فيجاس الجديد ، سأقامر بكل ما معى لأرى حظك .

ــ ما علاقة هذا بما نحن فيه ؟

— إن كل ما أكسبه من اليد إلى الفم . اليوم عندى خمسون دولارا ، إما أن أخسرها وأبيت مثل كل ليلة ، وإما أن أكسب مائتى دولار فأشترى بدلة جديدة .

— إذن لم لا تدخر دولاراتك القليلة إلى أن تصبح كثيرة وتشترى ما تحتاج إليه ؟

— هذه ثنائية.تفكر فى الحياة بمنطق اقتصادى وفى الزواج بقلب شاعر ؟

— أنت ترى بالعين وتسمع بالأذن فهل هذه ثنائية ؟

— لا يا صديقى .. لا أقدر على الجدل ولا أطيقه .. هيا بنا .

* * *

منذ شُغل بماى صار لا يستطيع مغادرة الفندق .. كان يخشى أن تمر عليه أو تسأل عنه فلا تجده ، فتضيع عليه لحظة يتمناها . فى المساء أخذ حماما باردا . أثناء تناول الشاى فى الحجرة سمع طرقا خفيفا ، خفق له قلبه .. وكان أن ظهرت ماى .

— مساء الخير يا أحمد .

أخذها ملء أحضانه .. قبلها فى كل وجهها .

— أهلا بك يا حبيبتى .

— هل اتصل بك السيد بنانا ؟

— كلا .. ولكن لم ؟

— مجرد سؤال .. لا عليك .

نظر فى عينيها الزرقاوين الصافيتين .. كان يرى بحرين من الحنان البرئ بغير ضفاف . الحب أمل الإنسان فى كل زمان ومكان .. آه يا حبى .

جلس على السرير وضمها إليه قائلا :

— هل يمكن أن تقرصينى ؟

— لم ؟

— يهيئ لى أنى فى حلم ، حلم جميل .!!

خشيت أن تحدثه عن الحلم والفرس والقرد الأسود .. وما قاله الكاهن .. المركب فى البحر والحمامة فى الصندوق .. هذه رموز لأى شيء ؟ سرحت بأفكارها بعيدا .. حتى ظنها قد غابت عن الوجود . بدت مثل وردة صفراء .. جميلة ، مريضة ، محيرة .

— ماى يا حبيبتى .. ماذا حدث ؟

أشعر بانقباض .. أريد أن أشم الهواء .

— هيا بنا .

— انتظر حتى أصلح شعرى .. وأعيد المكياج .

كان يرقبها متعبدا .. مثل بنات الحور يا ماى ، جميلة الجسم ، ذكية القلب . لم لا يجعل الله النساء كلهن على طبيعة ماى ... لكن المرأة الجميلة الذكية معجزة .. والمعجزات قلائل فى هذه الدنيا .؟!

سارا فى حديقة قريبة من الفندق . الساعة تقترب من العاشرة مساء . رطوبة منعشة معطرة بأريج الزهور وظلال الأشجار ، تحتوى العاشقين .

— اشتقت إليك كثيرا يا ماى .

— على أرض فيتنام كانت طفولتى التعيسة . طلقات المدافع والقنابل ما زالت ترعبنى حتى الآن .

— فى قرية صغيرة على النيل رأيت نور الحياة فى أسرة كثيرة العدد قليلة الرزق .

— قتل أحد الجنود الأمريكيين أبى . لم أكن أعرف لماذ جاءت أمريكا إلى بلادنا .؟ أمى العاملة الفقيرة دمرت الحرب المصنع الذى كانت تعمل به أيضا . كنا — أنا وأمى — نعيش أحيانا بلا ماء لعدة أيام .

— وُلدت أيام الحرب العالمية الثانية .. كانت قريتنا تزرع القطن ولا تلبسه ، والقمح ولا تأكله .. كنا نحارب مع الإنجليز ضد الألمان ، ولم تكن لنا مصلحة مع أى منهما .!!

— أكلت الحرب كل شىء فى بلادنا .. الرجال .. النساء .. الأطفال .. الزرع .. الحيوانات الأليفة والمتوحشة . الطلقات كانت طائشة تحرق حتى الأحجار .

— انتهت الحرب .. واسودت الأيام أكثر .. اختلفت أسماء اللصوص من الداخل والخارج .. لكن قريتنا كانت رغم الخضرة فقيرة . كنت أسير بجلباب ممزق ، وآكل الخبز الأسمر مع الماء . كنا جميعا نجوع ونصلى .. والعمدة يأكل اللحم ويلبس الحرير ولا يصلى ..!!

— حملتنى أمى وسارت فى الليل .. تشققت قدماها وهى بعيدة عن النار ، كانت تعبر بى من نهر إلى جبل إلى مستنقع .. لكن دوىّ المدافع كان مسموعا . كنا نتغذى على الخوف ونحلم بالأمان المستحيل .

— كل إخوتى فلاحون .. لم أكن أذكاهم ، لكننى الوحيد الذى دخل

المدارس ، بدأت أفهم الحياة .. وأعرف اللصوص . في الجامعة شاركت في السياسة .. هتفت للحرية والعدل ، وقلت الشعر أغنياتٍ في حب مصر .

ـــ وصلنا إلى هونج كونج بعد ثلاث سنوات ، رأيت فيها عذاب الخوف والفقر .. كان الكون كله بالنسبة لنا غولا ، كنا نتسوّل ، وأحيانا نشارك الحيوانات البحث عن الطعام في صناديق القمامة .

ـــ أصبحت زعيما للطلبة في الجامعة ، كنتُ خطيبا وشاعراً .. أنطقني الظلم والجوع . لا علم بلا حرية .. ولا حرية بلا عدالة . هكذا كنت أناضل ، وأقول الشعر .

ـــ ماتتْ أمي بعد أن وصلنا .. دخلت ديرا إنجليزيا بعد أن اعتنقت المسيحية ، وظللت فيه حتى حصلت على الثانوية العامة . آه يا حبيبي .. أنا بنت هذا الزمان النكد . لم أعرف صورة لأبي .. ولا أتذكر أمي إلا باكية خائفة ، تخشى كل شيء .. ماذا فعلت لكي ألقى كل هذا العذاب .؟!

ـــ يوم احترقت القاهرة قبضوا عليّ .. عشتُ في السجن خمسةَ شهور . شَلتْ يدُ الجلاد وبرودة الجدران قواي وأنا في العشرين . حين خرجت أنكرني كثير من الذين كنت أناضل من أجلهم ، حتى للفتاة التي كانت ترى فيّ بروميثيوس هجرتني . لم يكن من السهل أن أغفر لمن ضحيت وغنيت من أجلهم . لكنني لم أضعف ، لزددت إصرارا على مواصلة السير . لكن اسمي دُوِّن في قوائم الأمن ، وصرت ضيْفا عليهم في كل هزّة سياسية . تكسرت عظامي يا ماي .. شربتُ الذل بين الجدران

المظلمة . لكنى أحلم باليوم الذى أرى فيه راية الحرية والعدالة والسلام ، ترفرف على ربوع الوادى الأخضر — وادى النيل — وادى الملوك .. الوادى المقدس .!!

— لم يكن لى حلم فى الحياة .. حتى الزواج ما فكرت فيه قط . زادتنى حياة الدير زهدا فى متاع الدنيا . فلسفتُ العجزَ ، وارتضيت مؤمنة بحياة الفقر والحرمان .

— حين رأيتك عاد لى شبابى .. عادت لى كل الأحلام .. معا سنواصل الرحلة .

— يا حبيبى .. كم أتمنى الحب والحياة المستقرة .. سيكون لنا بيت وأطفال .. تصور يا أحمد .. أطفال ..!!

— نعم يا حبيبتى بيتٌ فيه حديقة .. وأؤلف ديوانا أهديه إليك يا ملهمتى .

— ماذا سوف تسميه .. قل .. لا .. لا تقل شيئا .. أنت تكتب الشعر .. وعلىَّ العنوان .

— إذن انتظرى حتى أكتب واختارى العنوان .

— أيها الحبيب الكسول .. لا صبر لى سوف أسبق الأيام ، سوف أقترح العنوان وعليك أن تكتب على مهل .

— إذن قولى يا حبيبتى .

— العنوان .. هو .. قبلنى أولا أيها الحبيب العزيز .

ضمها إليه فى شوق ، وهوّ يحس كأنما ملكَ الدنيا وما فيها .

— العنوان .. أغنية للحرية والحب .

— أنت رائعة .. أنت أسطورة .

— لا يا عزيزى .. أنا ماى إين .

— لا .. أنتِ .. أنتِ زوجتى الحبيبة .

كانا يعيشان فوق الزمان والمكان فى عالم الأمل . تشابكت الأيدى وسارا متلاصقين ، كأنما يريد كل منهما أن يدخل فى الآخر . مرَّا برجل متكىء على أريكة يغنى بصوت نشاز ، وقد أمسك زجاجة خمر ، حين أبصرهما قال :

— حبُّو يا أبنائى .. الحب جميل .. ألا ليت الشباب يعود .!!

لم يكن أحدهما يستطيع أن يقول كلمة ، فالصمت بين المحبين أبلغ من أى كلام .

* * *

فى صباح اليوم التالى كان يخشى أن يرى أحدا ، فيزحم خياله بصورة غير صورتها أو يفكر بموضوع سواها . دق جرس التليفون ، وهو يتأهب لتناول الفطور .

— صباح الخير يا شاعرى العزيز .

— صباح الخير يا حبيبتى .

— هل تقبل دعوتى للغذاء .

— أوه .. أين .. متى .؟ هذا كرم منك .. كنت أفكر فيك .

— وأنا كذلك . أرجو ألا يكون فى هذا تعطيل لك .

ضحك ملء فيه وهو يطفىء السيجارة :

— وهل جئتُ هنا للعمل .. إن القدر أرسلنى إلى هنا ، لكى أجدك

أيتها الملهمة الساحرة .

ــ التليفون لا يتحمل حرارة العواطف . ادخر كلماتك حتى نلتقى .

ــ متى .. ألا يمكن أن تأتى فورا .

ــ العمل عمل يا عزيزى .. بإمكانك أن تمر على فى البنك الرابعة تماما .. احذر أن تأتى قبلها . إلى اللقاء .. خذ قبلة ، واحذر أن تضيع فى الطريق .

ــ ها قد وصلتُ .. شكراً لكِ . إلى اللقاء يا حبيبتى .

أحس وهو يشرف على المدينة من عل ، أنه سيد الكون . لقد دفن الماضى بشجونه ، وها هو يولد من جديد . تمنى أن يكتب شعرا ، أن يناضل فى أى ميدان . الحبُ مفتاح الحرية ، والحرية باب الحياة . نظر إلى حقيبته الملقاة فى جانب الحجرة ، تمنى لو تنطق . إنه يريد أن يكلم أحدا .. شيئا .. لا يهم ، المهم أن ينفس عن نفسه أن يعبرّ عن فرحته . سأعود إليك يا مصر .. يا أمى .. أصلب عودا وأعلى صوتا وأقوى أملا .. سأعود ومعى ماى .

نزل قبيل الموعد بساعة ، بعدما خُيل له أن الزمن قد توقف . لقد فعل كل ما يقتل الوقت دون فائدة . أخذ حماما مثل حمام العروس . حلق ذقنه حتى كاد يسلخها . شرب كل ما فى الثلاجة من مرطبات . شاهد التلفزيون . دخن علبتين من السجائر . الحركة صاخبة فى الشارع المزدحم ، فالناس يعملون من العاشرة صباحا حتى الرابعة بعد الظهر . مضى يقتل الملل بمشاهدة واجهات المحلات ، ويرقب حركة

المواصلات والبشر . كان يبدو وحده الذى يسير بلا هدف . حين وصل إلى البنك فى الثالثة والنصف ، همّ بأن يدخل ، يسلم عليها ويخرج . حركة طفولية لا شك . لكن شيئا يلّح فى نفسه . القلب يخفق . أيها القلب المعذب صبرا . لكن ما المانع من أن يدخل ويأتى بها معه . إنها نصف ساعة بالنسبة للبنك ، لكنها بالنسبة لقلبه متعة ما بعدها متعة . لن تنهدم الدنيا . هم بأن يدخل ، لكنه تذكر أنه وعدها ألا يأتى قبل الموعد . ماى .. ارتعش قلبه كالذبيح صارخا حين نطق باسمها ، لكنه منّى نفسه بليلة جميلة ، حين يلتقيان بعد نصف ساعة ، فقط مجرد نصف ساعة .

عاد من حيث أتى . وقف أمام دار للسينما كانت تعرض فيلم « جريمة على النيل » للروائية الإنجليزية أجاثا كريستى ، صاح فرحا ، عظيم أن يعرض هنا فيلم عن النيل ، لكنه لم يستطع أن يخفى تشاؤمه وضيقه من عنوان الفيلم . بقيت دقائق ، الحمد لله البنك ليس بعيد . أوسع الخطى حتى صار على مقربة منه . قلّتْ حركة الداخلين والخارجين .. الرابعة إلا ثلاث دقائق .. دوت طلقاتُ مسدسات ومدفع رشاش . الصوت يأتى من الداخل .. من البنك . صوت صياح .. صراخ .. استغاثة .. زجاج ينكسر . فى لحظة اضطرب البنك ، وأصبحت رائحة البارود لا صوته فقط جليِة لمن يقف حيث أحمد موجود . بدأ يعى حقيقة الأمر . عملية سطو على البنك فى الدقائق الأخيرة . توقيت مدروس . لا أحد من الزبائن ، العمال يستعدون للخروج ، كل النقود صارت فى الخزينة المركزية .

فى لحظات الخطر يتصرف المرء بالحدس أو بالغريزة أو بالعقل لا يدرى ، همَّ بأن يدخل مهما كانت العاقبة . فى ثانية رأى رد فعل كل حركة .. يمكن أن تأتى منه . قد يخاطر فيقتل أو يتهم — وهو غريب — بأنه أحد أفراد العصابة . لكن ماى فى الداخل ، سوف ينقذها ، يحميها من الرصاص الطائش والمدفع الغدار . أصوات الزجاج المحطم .. الاستغاثة .. الصياح .. الصراخ .. الرصاص . سيارات الشرطة حضرت فى إثر صوتها المرعب . طوق رجال الشرطة المكان . أبعدوا بعض من جمعهم الفضول قرب الباب .. الفضوليون كانوا قلة ، إما أن المشهد عادى فى هذه البلدة المقامرة ، أو أنه لا أحد يهتم هنا إلا بأموره الخاصة .. الخاصة جدا .

كان أحمد مثل طائر مقصوص الجناح على صفيح ساخن . زاغت منه العينان .. تاهت النفس .. اضطرب القلب .. لكنه لابد أن يصنع شيئا . ليته نفذ رغبته وانتزعها وخرج من نصف ساعة مضت ، لحظتها كانت ماى الجميلة .. نغص خاطره فكرة أن تكون قد أصيبت بسوء . ليس هذا موقف تأمل ، إنما لحظة للعمل . اندفع حتى صار قرب الباب.أراد أن يدخل .. كان شرطى شاهرا مدفعه قرب الباب .

— خطيبتى بالداخل .. لابد أن أراها .. مكروه قد يحدث لها ، من .. من فضلك .. أر .. أرجو .. أرجوك ..

— أذهبْ بعيدا وإلا فرغت المدفع فى رأسك .

هكذا أجاب شرطى قصير ممتلىء وهو يدفعه بعيدا . تذكر ما قاساه من رجال الشرطة وهو سجين . استعاد أياما وليالى سوداء كان الشرطى

يعامله مثل كلب عقور . تذكر العصى الغليظة ، الأحذية الثقيلة ، الحديد المحمى بالنار ، حلق الذقن بالملقاط ، النور الذى يفتح ويقفل كل ثانية أو أقل .. لماذا كان من الصعب أن ننسى الذكريات المرة ..؟! قابيل لم تقتل هابيل .. تعذبه .. تسرق حبه .. تحرق حنطته .. تهدم عشه ؟!!

سيطر رجال الشرطة على الموقف بعد دقائق معدودة . قبضوا على اللصوص أحياء وجرحى وقتلى . كانت الثانيةُ جمرةً ، تحرق أعصابه . كيف يدخل .. كيف أنت يا ماى .. يا حبى الجميل فى هذا الزمن المر ..؟ ليس ثم إلا الصبر وهو فى بعض الأحيان موت بطىء . وصلت سيارات الإسعاف . كل جريح كان ينظر إليه فى لهفة ، كأنما الجريحُ نفسَه المعذبة . واحد .. اثنان .. ثلاثة من الجرحى .. ليست فيهم . الحمد لله .. يبدو أن الله سوف ينجيها من أجل .. من أجل ماذا .. المهم أن تنجو . سوف آخذك أيها الملاك النبيل بعيدا عن هذا العالم الشيطانى إلى مصر .. لا مكان لك فى هذه المدينة الملوثة . جريح رابع .. خامس .. سادس .. سابع .. ثامن .. الرقم الآتى رقم فردى .. يا إلهى .. النقالة التاسعة عليها .. عليها من .. ماى .. مغطاة بملاءة بيضاء .. الوجه شاحب .. العينان مغمضتان .. لا حس .. لا حركة . ماى أيتها الحبيبة من الذى قتلك اللص أم الشرطى ؟ هكذا الأبرياء دائما ضحايا .. فى كل مكان ، يغدر بهم الأصدقاء أو الأعداء .. من لا يظلم الناسَ يظلموه . هذا منطق الحياة كما تعلمه من الواعظ والجلاد ...!!

لا يدرى كيف قفز إلى سيارة الإسعاف إثرها وهو يصيح :

ـــ ماى عروسى .. حبيبتى . أملى ..

تفرسَ البعضُ فى وجهه ، وهم يستغربون كيف يخطب هذا الغريب فتاة من بلادهم . قال له الممرض فى رفق ، وقد رثى لحاله :

ـــ تستطيع أن تأتى غدا لزيارتها فى المستشفى . لا تنسَ أن تحضر باقة ورد .

أنزلوه من السيارة فاقد الوعى .. سار لا يدرى إلى أين يمكن أن تقوده قدماه . يا للسماء كيف حدث هذا . من الذى قتل زهرة الحب فى وضح النهار ؟ أيمكن أن تكون هذه هى النهاية المفجعة .. ماذا حدث يا ماى .. أوَ هكذا تحيين قلبا ميتا ، ثم ..؟! لا .. مستحيل . ظل يسير لا يدرى إلى أين ، فقد كان مثل قط ضال فى فناء مظلم .!!

فى صباح اليوم التالى كان يضع باقة من الورد على قبر ماى . جلس يبكى .. كما لم يبك أباه .. رفاقه .. أصدقاءه . لأول مرة يدرك أن للموت هذا الألم الفظيع . هربت ماى من نار البارود فى فيتنام .. وها هى تقتل به فى هونج كونج . كيف يكون القدر عنيدا إلى هذه الدرجة .؟! الدودة القذرة أكلت الزهرة الجميلة ، البراءة محكوم عليها بالإعدام فى كل مكان . ماتت ماى ـــ كان يسائل نفسه دهشا ـــ هل يمكن أن يموت من عاش فى قلب من أحب .؟ نادرا ما يبكى الرجال ، ولكنهم إذا بكوا فما أحرّ دموعهم .. كان يبكى بيتا لو يُبنى .. طفلا لو يولد .. أملا لو ينبت .. قصيدة لو تكتب ..!!

ظل يبكى .. ويبكى ، حتى لم يبق فى عينيه دمع .. ثم قام متحاملا على

نفسه ، وبنانا يرقبه فى صمت .. إذ لم يفترقا منذ لحظة خروجها من البنك .. لقد جاء بنانا يخطبها لصديقه .. لكنه جاء أيضا مثله متأخرا . حملت أحمد ساقاه المتعبتان ومضى ينقلهما فى ثبات ، كأنما يقصد طريقـا واضحا ، فسأله بنانا حزينا :

ــ إلى أين يا صديقى .؟

ــ إلى المطار .. لقد سبقتنى ماى .. سوف أجدها هناك ، وسوف نحقق كل الأحلام .!!(*)

* * *

(*) كتبت هذه القصة فى مارس ١٩٧٩ ، ونشرت فى مجلة « الكاتب » القاهرية — العدد (٢٢٥) — يناير ١٩٨٠ .

للقمر.. وجوه كثيرة

ــ أهلا بك فى مانيلا يا سيدى !

ــ مفتاح الغرفة .. لو سمحت.!

ابتسم وهو يناوله إياه قائلا :

ــ ١٠٠٤ ــ الدور العاشر .. لكن يا سيدى الجو منعش ، والليل ما زال طفلا .

ــ عظامى مكسرة .. الرحلة طويلة .

ــ ألا تريد عشاء يا سيدى .. مشروبا .. أى شىء ؟

ــ .....

ابتسم موظف الفندق ابتسامة لم يتبين محمود لها معنى ، ثم واصل الموظف ثرثرته :

ــ كل هيلتون مانيلا فى خدمتك .. ومن أجل راحتك يا سيدى .. فقط أشر .

فر من الرجل المبتسم ، الذى لا يريد أن يكف عن الكلام وعرض الخدمات . كانت صالة الاستقبال ــ كما بدت له بعين مرهقة ــ مزدحمة كسفينة نوح ، بشر خليط من جنسيات عدة . اصطدم بفتاة فابتسمت قائلة :

ــ هالو عزيزى .. أين طريقك ؟

ــ المصعد لو سمحت .. (تمتم لاهثا) .

همت به تريد أن ترافقه لكنه أسرع ، حيث أشارت . هبط

المصعد . نزل من كانوا به إلا شابا أوربيا وفتاة وطنية . كانا شبه مخمورين ، قال كأنما يتقيأ :

ــ الأرض كروية .. أردنا أن نصعد فنزلنا .. ها .. ها .. !!

كانت راقد كالقطة على صدره ، أفاقت قائلة :

ــ آو ه .. أين نحن .. مساء الخير يا أنت .. ويا أنت مساء الخير جميعا .. (ثم ارتخت عارية الصدر على كتفه) .

كاد لا يدرك ـــ من التعب ـــ حركة الكون . خرج من المصعد كما الفأر المطارد . لم تكن الحجرة بعيدة . فتح الباب . أشعل النور . الحقائب وصلت . أخرج زجاجة « سفن أب » وعبها . رمى الجاكتة لا يعلم أين . جو الحجرة أكسبه المكيف برودة منعشة . لم يحاول أن يتعرف على معالم الحجرة ، كان يبحث عن حقيقة واحدة .. النوم ، ما أحلى الرجوع إليه .!

بين اليقظة والنوم أحس طرقا هادئا ، ظن أنها ضربات عروقه فى الدماغ . تكرر الطرق . جرّ ساقيه ، فتح الباب . فى الضوء الشاحب ظهر وجه أنثى ، دخلت دون استئذان مبتسمة :

ــ مساء الخير يا سيدى .

ــ مـ .. مسا .. مساء .. الخير .!

عاد تائها إلى السرير ، بينما جلست على كرسى أمامه :

ــ أتمنى لك رحلة طيبة فى الفلبين .

ــ ...

ــ أول مرة تزور بلادنا .؟

ــ أول ..

تعطل تفكيره ، كان مثل طفل يدخل المدرسة لأول مرة .

ــ أنت متعب يا سيدى .

أومأ علامة الموافقة .

ــ لهذا جئت إليك .

ــ نعم ؟

ــ سأقوم لك بعملية مساج .

ــ نعم . ؟

ــ تدليك ، يريح عضلاتك ويطقطق عظامك ، بعدها تحس .. أنك ولدت من جديد .

لاذ بالصمت .. ولم يتحرك .

ــ يا حرام .. لم تخلع ملابسك بعد .. قم وتخلص منها .

بدأ ينفذ ، خلع الجورب .. الكارفتة .. القميص .. البنطلون ، ثم دفن جسده فى الملاءة .

ــ قلت اخلع ملابسك .. كلها .. من فضلك .

اتجهت فى رشاقة ، حيث أغلقت الباب ، وزعت الأضواء بطريقة وردية ، فتحت الراديو على البرنامج الموسيقى .

بدأت تدلك ظهره ، بينما كان يرقد مثل المومياء .

ــ لا تتكلم يا سيد محمود ..؟ لا تندهش ، قرأت اسمك على الحقيبة .

ــ أفضل السماع .

ــ وأنا كذلك ..!

ـ إذن نستمتع بصوت الموسيقى .

انتهت بعد مدة لا يعرف مداها من تدليك ظهره .. فقالت :

ـ بإذنك سيدى .

ـ .....

وقفت على السرير ، ثم على ظهره . كانت تحاول برشاقة طقطقة عظام الظهر . ابتسم داخل نفسه محدثا إياها .. يا سلام ، الطب تقدم .!!

عادت بخفة إلى مكانها على حرف السرير :

ـ نم على ظهرك .

نفذ تعليماتها فى صمت بارد . تأمل وجهها فى ترقب ، بدت مثل ظبى جاف فى غير هزال . الشعر مقصوص . الوجه خال من المساحيق ، بيد أنه يعطى إحساسا بالراحة . العينان حوراوان وراءهما نهر من الأحزان . كانت فى ثوبها الأبيض ملاكا ، طُرد من الجنة ورفض النزول إلى الدنيا ، فظل معلقا بين الضوء الشاحب والموسيقى الراقصة ..!

ـ أنت متزوج يا سيدى .؟

ـ لم يحدث لى الشرف بعد .!

ـ إذن فما زلت عذراء .. !!

قالت وهى تخفى بسمة ماكرة . ابتسم متغابيا ..!!

راودته فكرة أن الإنسان مسيّر . تناسى كل شىء سوى أنه رجل مع امرأة . كان الموقف جديدا عليه . لم يزايله التردد ..؟ نظر إلى المصباح داخل الأباجورة ، يصارع الضوء والظلام ، لمست يده بطن ساقها

فجرها سريعة ، أعادتها إلى مكانها ، تؤدى عملها فى دقة رشيقة . أثار انتباهه نقطة ماء ، نزلت من صنبور الدورة الملحق بالحجرة ..!

ــ أتود القيام بتجربة حب .؟

ــ أوكى .

قالها وهو يمسح شفته السفلى بأسفل لسانه .

ــ كم تدفع ؟

ــ ما تريدين ..!

بدرت التفاتة فوجد التلفزيون الملون صامتا مثله . شاشة التلفزيون عكست صورة القد الأهيف ، ارتمت عارية بجواره .

إلى جنة الخلد يا عمتى العزيزة .. ألف رحمة تنزل عليك .. لولاك ما عرفت أسرار العالم المجهول . قضيت طفولة بائسة .. مات أبى وأنا طفل .. تزوجت أمى بعد ذلك .. من أحد أقاربها . عشت فى بيت عمتى زينب العانس ، كانت مرابية ، انتقمت ــ بمالها ــ من جنس الرجال .. كل الرجال ، الذين لم يتقدم واحد منهم لزواجها .

بعد أن حصلت على الثانوية العامة ، كان علىّ أن أبحث عن عمل .. حتى أحرر نفسى من ذل العمة . استطاع إمام المسجد أن يجد لى وظيفة ــ كاتب فى أوقاف الدقهلية . كان برنامج حياتى لا يتغير .. فى السادسة صباحا أركب قطار الدلتا من كفر بدواى ــ قريتنا الحبيبة ــ إلى المنصورة . أكون أول الداخلين إلى الإدارة وآخر الخارجين ، أقوم وحدى بعمل مكتب الحسابات كله تقريبا . أغرى كل المحيطين بى أننى طيب ودقيق . للأسف كنت أقوم بالعمل وإنهاء المصالح ، والزملاء

يحصلون على الرشاوى والهبات ، لأنى كنت لا أقبل شيئا منها .. ليس من منطلق الحلال والحرام ، وإنما من قبيل إحساس من عَرف الظلم وكره أن يظلم غيره .!!

كانت عمتى لا تكف عن معايرتى بأمى لأنها تزوجت مرتينْ .. !

لم أكن أجد غضاضة فى أن أظل عانسا مثل عمتى .. بل صرت أفلسف العزوبية .. ولم يكن لى لذة سوى القراءة .. والمشى وحيدا — على شط الترعة . كنا نعيش سويا ، بيد أنه كان لكل منا عالمه الخاص ، بالمعاشرة صارت بيننا أشياء مشتركة كثيرة ، لست أدرى ما هى على وجه التحديد ؟!

ذات صباح قالتْ لى :

— اسمعْ يا محمود .. لقد كبرت ، وصار بينى وبين القبر خطوات ، لابد أن أحج بيت الله .

قلت لها مازحا :

— كيف تكملى نصفَ دينك الثانى قبل الأول .. لا يا عمتى .. انتظرى حتى يأتى ابن الحلال .

فقالت وهى تضحك :

— يا ابن الكلبة اسمع .. ونفذ ما أقول .

وجدت سعادة فى إنجاز ما يلزم لهذه الرحلة المقدسة . يوم حملتُ لها جواز السفر كانت العزيزة تعانى سكرات الموت .

— أرجو أن تكون قد سعدتَ بصحبتى الليلة .

— ليلة سعيدة .. بالمناسبة ما اسمك ؟

— مريانا .. وإن نسيت الاسم فقل أريد رقم (٤) .

— لا .. لن أنسى .. أنت عظيمة .!

خرج من الفندق فى الضحى . الشمس تبدو شابة رغم بـرودة فبراير . أشار إلى تاكسى وقال فى إنجليزية سريعة :

— إلى كنيسة البامبو .

نظر إليه السائق من المرآة ، وهو يقول مبتسما :

— أنت ضيف فى بلادنا يا سيدى ؟

— نعم .

— كرم منك هذه الزيارة .

— شكرا .

— هل من خدمة أؤديها ؟

— توصلنى إلى كنيسة البامبو .

— أى خدمة أخرى .؟

— لا .. وشكرا .

— لا تريد قضاء وقت سعيد ؟

— ....

— هذا أول يوم لك فى مانيلا .

— نعم .

— مانيلا مدينة مزدحمة .. سبعة ملايين يا سيدى .. المواصلات هنا متعبة .. يشرفنى أن أكون فى خدمتك .. لن آخذ سوى ما يسجله العداد .

كان يعرف أن هذا الصنف من البشر ، يبدو زاهدا فى كل شىء ، وينتهى غير قانع بأى شىء .!

أوقف السيارة قبل أن يدع له فرصة للتفكير .

ــ تفضل يا سيدى .. هنا مصنع عربات الجيب .. الأمريكان عملوه أثناء الحرب مع اليابان . لأمريكا أصبع حيث توجد أى منطقة ساخنة فى العالم . بعد الاستقلال أصبح يقدم وسيلة مواصلات هامة ، سترى شيئا عظيما ، يصنعه الفلبينيون بأيديهم .

قال وهو يماشيه ــ أمرى لله !! ــ قابل كرذاذ المطر بعض نساء وفتيات وصبية لبسوا ملابس فقيرة ، يبيعون تحفا يدوية : تماثيل ــ عقود ــ قرون بقر ، يقفزون على أكتاف الداخل وأمامه ، يضعون فى يده أو عنقه ــ بالإكراه ــ بعض ما معهم .. صائحين :

ــ خمسون بيسو فقط .

ثم يأتى طفل آخر أو فتاة أخرى فيعرض عليك نفس السلعة قائلا :

ــ أربعون بيسو .

ويأتى ثالث فيقول :

ــ خمسة وعشرون .

وينتهى الأمر إلى عشرة بيسو .

يدور فى ذهنه سؤال : إذا استطاع أى أحد من هؤلاء المعذبين أن يبيع كل ما معه ، فهل يخفف هذا بعضا من عذابه .؟!

شيئان كانا يلحان على نظره ، وهو يرقب من نافذة التاكسى .. الزحام فى الشوارع والبؤس على الوجوه .

ـــ اسمى تونى يا سيدى .. وأنت ؟

ـــ محمود .

ـــ أهلا بك يا سيدى .. هل رأيت نساء مانيلا .؟!

تأمله فإذا هو شاب فى الثلاثين ، أميل إلى القصر والبدانة .

ـــ كم بقى حتى نصل إلى الكنيسة .؟

بذكاء التاجر المحترف تناسى السائق الأمر ، وبدأ يثرثر :

ـــ هذه الكنيسة بناها الأسبان الذين استعمروا بلادنا منذ القرن السادس عشر ، ونشروا المذهب الكاثولوكى ، لكنهم فشلوا فى أمر اللغة ، لذا فإن الكثير منا يتكلم الإنجليزية بجوار اللغة الوطنية ، بينما الإسبانية محدودة .

ساءل نفسه كأنه يطرح عليها السؤال لأول مرة : لماذا مات أبوه .. ونسيته أمه .؟ كانت عمته دائما تقول له « يابنى لا تشغل نفسك بما لا تقدر عليه .. وما لا تقدر عليه ، اصبر له » . أين أنت الآن يا نورة .. نورة بنت العمدة ، أول فتاة تدخل المدرسة فى قريتنا . كم وقفتُ بالساعات ، حتى أرى عربة والدها الفارهة ، تمر وهى غاطسة فى المقعد الخلفى وسط ضفائرها ذات الشريط الأبيض . الويل من والدها .. ومن شيخ الخفر .. ومن الخفر ، بل حتى من صديقى الشيخ عمران إمام المسجد ـــ لو حاولت أن أكلمها . لكن نار الشوق تحرق القلوب الخضراء . وقفت أمام مدرسة الليسيه ، سلمت عليها ، طلبت منها أن تساعدنى فى تعلم اللغة الفرنسية ، التى بدأت أدرسها فى السنة الأولى الثانوية . أوه .. يا نورة كما تضيع النجوم فى الليل ضاع كل شىء ، بقيتْ

فى القلب حسرة .. آه أيها القلب المعذب من الذى سرق منك الحب ..؟!

نصحه مدير الفندق أن يستعين فى جولاته بإحدى الشركات السياحية . كارمن سوريانو مديرة الشركة فى الخامسة والثلاثين ، تبدو إمبراطورة رشاقة وشعلة ذكاء . رأسمال الشركة — كما علم منها — حوالى خمسة ملايين دولار أمريكى ، تملكها هى وزوجها . هذه الشركة لا تتعامل إلا مع الأفواج السياحية ، لكنها لسبب لم يعرفه حتى الآن ، قبلت أن تقدم له خدماتها . أكثر من ذلك خصصت له سيارة زوجها المسافر حاليا إلى أمريكا لأعمال خاصة .

فى الطريق الزراعى إلى مدينة « إيجاى تاى » مرت السيارة على إقطاعيات يملكها أثرياء من الفلبين والأسبان . تبدو الفلبين واحة خضراء .. كل الأماكن مزروعة حتى الجبال والتلال . كان الطريق يذكر محمود بقريته .. بالريف المصرى كله بما فيه .. ومن فيه ، كأن العالم كله يقوم على قدر من التشابه . كثير من السكان يعيشون فى قرى متناثرة قرب الطريق المعبد . المساكن كانت فى معظمها أكشاكا من البامبو وخشب الأشجار ، ذات سطح مثلث يساعد على إنزال مياه المطر . أثار انتباهه أن السيارة كلما خرجت من منطقة إلى أخرى تدفع ضريبة مرور .!

أثناء العودة فى شوارع مانيلا ، كانت السيارة تمر بمنطقة واسعة يرفرف عليها علم الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث مقابر شهداء الحرب العالمية الثانية .. ثم مرت السيارة بمنطقة أرستقراطية معظمها من الفلل الراقية والفنادق السياحية والنوادى الرياضية .

ــ هذه المناطق خاصة بسكن الأثرياء والسياحة خاصة لليابانيين .. تصور يا سيدى أن سياحة اليابانى هنا تكلفه أقل بكثير مما يدفعه فى طوكيو .؟!

الدول الاستعمارية حين تخرج من مكان ، لابد أن تترك خلفها ذيولا أخطبوطية .. هكذا حدث نفسه ، وهو يقرن هذه المنطقة الفاخرة بأكواخ الفلاحين التى لما تغب ذكراها عن عينيه بعد .

لا أستطيع نسيان ذلك اليوم التاريخى ، لقد زار إدارة أوقاف المنصورة سيادة الوزير . لم يكن الوزير أزهريا ــ كما هو الحال ــ لكنه أستاذ فى الفلسفة الإسلامية حصل على الدكتوراه من السربون ، قيل إن الحكومة عينته لكى يطور الوزارة ويطهرها . وصل فى السابعة والنصف ــ قبل أى موظف ما عدا العبد لله ــ وبدلا من أن يتوجه إلى مكتب المدير ، أخذ يفتش فى حجرات البدروم وأكشاك السطح ، حتى ظفر بما أقام عليه الإدارة وأقعدها .

ــ هل هذه إدارة أوقاف أم سوق فراخ يا سيادة المدير .؟

ــ عفواً يا معالى الوزير ماذا تقصد ؟

ــ عشة فراخ فوق سطح الإدارة .. ما شاء الله .!

ــ لم أكن أعلم بها من قبل .

ــ إذا كنت لا تدرى فتلك مصيبة ..

خصمَ للمدير يومين من راتبه ، وقرر بيع الفراخ ومصادرة ثمنها .. وخصم أسبوع للبوّاب . دخل الوزير بعد ذلك إلى حجرة مفتشى المساجد ، فسأل شيخهم :

ـ أين دفتر حضور المشايخ وانصرافهم يا مولانا .!

ـ التفتيش عمل فنى يا سعادة الوزير ..

ثم واصل شيخ شاب الحديثَ فى حماسة :

ـ إن المفتش عمله فى المساجد وليس فى الإدارة ، دفتر حضور وانصراف .. ما سمعنا بهذا نحن ولا شيوخنا الأولون .

نظر إليه الوزير فى حدة وقال :

ـ تسمع عن هذا إن شاء الله فى أسوان حين تشرفها بعد غد .

أسقط فى يد الشيخ المتحمس .!

وصل الوزير إلى حالة العجب العجاب ، حين دخل قسم الشئون المالية . مضى رئيس القلم فى غمرة الفرحة يعترف بالحقيقة قائلا :

ـ الحق يا معالى الوزير ، البركة كل البركة فى الأستاذ محمود ، إنه أقدم وأكفأ واحد هنا ، يعرف كل صغيرة وكبيرة فى المديرية كلها .. ولكن ..

ـ لكن ماذا .. قل .؟

ـ لكنه منذ عشر سنوات يا معالى الوزير ، ما زال فى الدرجة الثامنة ، لذلك لم يستطع أن يتزوج حتى الآن .

حملونى مثل كيس من البطاطس ووضعونى أمامه . أخذت أصلح النظارة والكرافتة ، وأنا ساكت خشية أن يحدث ما لا تُحمد نتيجته . لم أكن أتصور أن الوزير بجلالة قدره ، يقف مبتسما ليصافحنى ، ويحيينى :

— أهلا يا أستاذ محمود .. أنا رجل عادل أعاقب المخطئ ، وأقدر الممتاز .

— أهلا بك يا أستاذنا الدكتور ..

أدرك الوزير أنى أخاطبه بلقب لم يستخدمه أى من العاملين .

— حدثونى كثيرا عن كفاءتك .

— أعمل واجبى وأرضى ضميرى .

— لكننى فى الحقيقة حزين من أجلك .؟

— ....

— لم تتزوج حتى الآن يا بنى ؟

— إرادة الله يا سيادة الدكتور .

— لكن .. ماذ تفعل فى وقت الفراغ ..؟

— ليس عندى يا صاحب المعالى !

— كيف .؟

— بعد أن أفرغ من العمل .. أقضى وقتى كله فى رعاية عمتى العجوز .. والقراءة .

— تقرأ .. ما شاء الله .. فيم.؟

— فى كتب الإمام الغزالى والشيخ محيى الدين بن عربى .

بالطبع كنتُ ماكرا فى الرد عليه ، فلم أذكر أنى أقرأ بعض كتب الفلسفة والاقتصاد السياسى والروايات المترجمة ومسرح شكسبير وشعر شوق .. بل إن الأمر أحيانا لا يخلو من بعض كتب فى الجنس وقصص الحب .

— بارك الله فيك يا بنى ..!!

اهتزت أسارير الرجل ، فقد كان متخصصا فى « الفلسفة الصوفية » . مضيت فى إتقان الدور إلى آخره فقلت :

— وأحفظ أيضا شعر عمر بن الفارض ..

— الله .. الله .. قل يا بنى إن من الشعر لحكمة ..!!

زِدنى بفرط الحب فيكَ تَحيُّرا
وارحمْ حَشىً بلظى هواك تسعَّرا
وإذا سألتك أن أراك حقيقةً
فاسمحْ ولا تجعلْ جوابى : لن ترى
يا قلبُ أنتَ وعدتنى فى حبهم
صبرًا ، فحاذرْ أن تضيق وتضجرا
إن الغرامَ هوَ الحياةُ فمتْ به
صبًّا فحقك أنْ تموتَ وتُعذرا

شد الرجل على يدى معجبا وهو يربتُ على كتفى .. وأمر بترقيتى — استثناء — إلى الدرجة السادسة ، وبعدها أنعم الله على أيضا بوفاة عمتى .

خرج محمود من الفندق أول المساء ، وتجول فى ميدان رزال بطل الاستقلال ومحرر الفلبين . ذكره بتمثال أحمد عرابى ، فأحس أواصر عميقة تربط الأحرار فى كل مكان .. ماذا لو بُعث زعماءُ الحرية فى العالم واجتمعوا فى مكان واحد .. وأقاموا مؤتمرا .. ماذا سوف يقولون للعالم بعد صراع عظيم من أجل الحرية والعدالة .. بعد أن يروا كثيرا من المبادىء التى استشهدوا من أجلها قد صارت الآن حبرا على ورق . راودته فكرة

ساخرة أليس من الممكن أن يرفض بعضهم تاريخه ودوره ، ويتمنى أن يعيش إنسانا عاديا . لكن هل يقبل الأسد حياة الثعلب ؟ قطعت خواطره سيدة تلبس ثوبا أخضر ، غطت المساحيق وجهها.قالت فى لهجة مبتذلة :

ــ مساء الخير .

ــ ....

ــ هل أطمع فى سيجارة ؟

أعطاها السيجارة ، ورمى العلبة :

ــ السيجارة الأخيرة ؟

ــ بل قل .. السيجارة السعيدة .. من يدخن آخر سيجارة ، فكأنما دخن العلبة كلها .. كلها يا عزيزى .!

ــ فكرة يا سيدتى .!

ــ ألا تريد أن تتمشى معى ــ بدأ صوتها متفاخرا ــ مع إميلدا .. إميلدا أجيرى .!

ــ لكنى مرتبط بموعد .

ــ مع من ؟.. مع سيدة .. قل (كشفت الشال عن صدرها الممتلئ وثدييها النافرين) .. هل هى أحسن منى .. إن كان هذا صحيحا فسوف أترك لك الخيار .. هيه .. لم تتكلم بعد .. أرأيت .. كسبتُ الرهان .. أنا .. أنا أجمل .. أليس كذلك .؟

أحس أنه أمام إمرأة ذات أسلحة رشيقة وأنوثة طاغية . عاودته ــ بعد حياة كلها تردد ــ الرغبة فى المغامرة ، فصاح وهو يتأبط ذراعها فى نشوة :

ــ أوكى .. اليوم حب .

ــ أين تريد أن تذهب ..؟

ــ أود رؤية المدينة فى المساء .

ــ إذن تعال .. تعال نركب أتوبيس الحب .!

ــ نعم ..؟

ــ اسمع يا عزيزى إن سيدة مانيلا ، ليست زوجة رئيس للبلاد فحسب ، إنما هى إمرأة دولة بمعنى الكلمة ، إن لها دورا سياسيا .. ولها مشروعاتها التجارية الخاصة .. كما أن لها عناية بخدمة المجتمع . وقد أدركت بحكمتها صعوبة المواصلات فى مدينتنا المزدحمة ، لهذا سيرت هذه الأتوبيسات الفاخرة التى تملكها حلا لمشاكل المواصلات .. وأسمتها أتوبيس الحب .!!

ثم أطلقت إميلدا ضحكة امتزجت فيها اللامبالاة بالسخرية .

حين أُغلق بابُ الحجرة عليهما ، بدأ يحس أن حركاتها غليظة ، وعلاقتها بالأشياء تخريبية ، حتى السونتيان قذفته فسقط فوق الحذاء . كانت كلما خلعت قطعة من ثيابها ، تضاءل داخل نفسه . راودته مشاعر متضاربة ، لكن القرف كان هو الإحساس المسيطر عليه ، جرى نحو الدولاب وأخرج ورقة بمائة بيسو . وضعها فى حقيبها ، وقال محاولا أن يخفى تأففه :

ــ هذا يكفى اليوم ، أراك مرة أخرى يا إميلدا .

تحولت البقرة الهائجة إلى قطة مستسلمة .. ارتعشت .. شهقت .. بكت . احتار ماذا يصنع ؟ اقترب منها قائلا :

— لم أنت حزينة يا عزيزتى ..؟

— لا .. لا يا سيدى لا آخذُ أجرا على عمل لم أقم به .. إنى فقيرة ، هذا صحيح — لكنى شريفة .

شر البلية ما يضحك .. لو كان مستريح البال لضحك ملء رئتيه ، لكن كيف يضحك من أكل قلبه خمسون خريفا ..؟ أحس ضعف الإنسان المنكسر .

أول مرة شاهدتُ فيها نورة كنتُ فى العاشرة من عمرى بعد الانتقال إلى بيت عمتى زينب .. بينما كانتْ هى برعما فى الخامسة تجرأت — برغبة طفل محروم — ودخلت حديقة والدها العمدة أقطف وردة حمراء . هناك من أمور الحياة مواقف لا تنسى . من عجب أننى أحب هذا اليوم وألعنه فى الوقتِ نفسِه . هذه الدنيا غريبة ونحن أغرب ما فيها . يومها ضربنى أبوها الثور علقة ساخنة ، لدرجة لم أستطع بعدها المشى وسقطت مغشيا علىّ ، فحملنى أحد الخفر كما تحمل الجثة ورمانى بجوار السور . ما أقسى شعور الإنسان حين يرى أنه زائد عن حاجة البشر . كنتُ بين الموت والحياة .. ثم جاءت نورة فى أول الليل حتى لا يراها الثور .. أخذتنى معها .. أخذت تربت على جبينى وظهرى ، داوتْ الجراح ، ملأت المعدة الخاوية ، ألبست الجسد العارى ، أعطتنى الوردةَ الحمراء .. ردتْ إلىّ الروحَ .. وقالت :

— تعال عندما تشاء .. لكن من باب الحريم ، حذار أن تظهر أمام مضيفة الرجال أو بوابة السراى .

أصبحت نورة حقيقة وحلما .. يملآن كل حياتى ، وتمدنى بقوة

خارقة فى لحظات الضعف . بعد أن عملت بالأوقاف أخذت أدخر القروش لأجمع مهرها . يا للسذاجة كنت أقول لنفسى إن العمدة طبعا لا يقبل لها مهرًا أقل من ألف جنيه ، لكنى يومذاك لم أكن أعرف كم جنيها فى الألف جنيه . فكرت لحظة فى اغتيال عمتى المرابية ، نسيت أن مهرها لى كان وردة حمراء . آه يا نورة .. يوم تزوجتِ حشرتُ نفسى داخل الحفل . كنتِ مثل إيزيس فى الكمال والجمال . لم يكن للحب فى هذه السن الخضراء إلا معنى واحد .. كنت أرى فى نورة صورة أم لم أعرفها عن قرب .. ورمزًا لآمال إنسان محروم لم يُعط أى شىء فى الحياة . آه يا نورة ، فى يومٍ كان عرسُك ومأتمى ، رأيتك جالسة بجواره فى المقعد الأخير من سيارة فارهة .. أنت غزال نافر .. وهو خنزير بليد .. كم تمنيت أن أغتال ذلك الخنزير وآخذ مكانه . كنت أحمل لك الوردة الحمراء . أصررت على أن تكون آخر شىء منى مثلما كانت أول شىء منك . خلتك تنادينني .. تتعلقين فى عنقى .. أدخلت يدى .. ألقيت بالوردة فى حجرك .. لكن الخنزير أغلق الباب بغباوة ، فطارت عقلة من إصبعى الوسطى . نهر من الدموع يفيض من عينيك بينما شريان دم لا يتوقف من إصبعى . يومها كنتُ فى الخامسة والعشرين ، بعدها لم أعد أحسب عمرى ، فقد أحسست أن الزمن أسقطنى من حسابه ، لكنى الليلة فى مانيلا بدأت أشعر أن كثيرا من حساباتى تحتاج إلى مراجعة . نظرتُ إلى السماء بعد ليلة طويلة ، فإذا هناك بجوار القمر عدة كواكب خلت أنى آراها لأوَّلِ مرة ..!!

فى صباح اليوم التالى ذهب محمود مع لابو إلى مدينة باكو ، حيث تقع

فى منطقة جبلية . ثم إلى مدينة كورديور التى كانت مسرحا للقتال بين اليابان والأمريكان ، ورأى المتحف الذى يضم آثار الحرب ومقابر الشهداء . كان لا يجد صعوبة فى الربط بين ثراء الفلبين وأهميتها الاستراتيجية .. وكثرة الغزوات التى حدثت فى جزرها .

ــ لابو .. هل يوجد فى العاصمة مساجد .؟

ــ نعم سيدى .

قال لنفسه لتكن زيارة المسجد نهاية لهذه الرحلة . مرت السيارة بالجامعة ، فلم يستطع أن يكبت أحساسا بالحزن داخله . تمنى أن يدرس فى الجامعة وأن تكون له زميلة حلوة ذكية .. ما أعظم المرأة حين تجمع الجمال والذكاء . تمنى أيضا أن يناقش أستاذا فى الجامعة .. ترى كيف يكون أستاذ الجامعة .. هل هو رجل مثل بقية الناس .. أيتها الجامعة المهيبة كيف تكون الحياةُ داخلَ أسوارك .؟ لم يستطع أن ينسى أنه عاش طول عمره محروما من كل ما تمناه . ما أتعبَ الإنسانَ حين يحس الظلم ، ويشعر بالعجز عن دفعه ..!!

لاحظ لابو شروده فقال معاتبا :

ــ ألا تريد زيارة الجامعة ؟

ــ لا .. وشكرا .

ــ ولا السكن الداخلى .. (أطلق ضحكة ماكرة) .

ــ ...

ــ ألا تريد أن تتعلم ..؟!

ــ فات الأوان ..!

ودعتْ الشمسُ الدنيا لحظة دخوله المسجد ، الذى كان يشغل جزءا من مساحة بها مدرسة وبعض بيوت خاصة بالمسلمين . هذا المسجد أقامته الحكومة الليبية على الطراز الإسبانى . لاحظ اتساع المسجد وفخامته ، لكن أرضه الرخامية الحمراء كانت بلا سجاد أو حصير . أُذّن لصلاة المغرب بصوت عربى ، وأدى الصلاةَ خمسون مسلما . كان الإمام يتلو القرآن بطريقة سليمة .. وقد عرف بعد ذلك أنه تعلم فى الأزهر بالقاهرة . كان الإمام يقرأ فى الصلاة بعض آيات من صورة « ص » :

﴿ إن هذا أخى له تسعٌ وتسعون نعجة ، ولى نعجةٌ واحدة ، فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ما هم .. ﴾

حين يعرف المرء أنه سيفقد شيئا يمتلكه ، يحس أنه لا يود أن يتركه إلا بعد أن يأكل لحمه ويمتص عظامه . فكر محمود كثيرا فى ليلته الأخيرة كيف تكون . أيذهب إلى المسارح الشعبية المنتشرة فى أحياء المدينة ؛ ليرى كيف يؤثر الفن فى حياة الناس .. أم إلى النوادى الليلية ، حيث الرقص والموسيقى . هل يطلب مريانا رقم (٤) فقد كان فى عينيها كلام كثير لم تنطق به .

دق جرس التليفون :

— هاللو مدام كارمن .

— ....

— أشكرك على هذه الدعوة ..

— إلى اللقاء يا سيدتى العزيزة .

فى الطريق إلى البيت كان السائق لابو صامتا على غير عادته ، بينما شطح محمود بأفكاره حول صاحبة المكالمة التلغرافية . تحس وأنت تتعامل أنها دقيقة فى كل شىء .. الكلمات .. الحركات .. كأنما وضعت آلة حاسبة فى رأسها . سيدة غاية فى الرقة والأناقة .. تضطرك إلى أن تحترم بالضرورة ما بينك وبينها . أخيرا قال فى سره دعك من كل هذا .. المرأة هى المرأة — ما دام فى الأنثى قلب ينبض ، فلن ترى فى الوجود شيئا أفضل من الرجل .. تسعده أو تشقيه ، المهم أن تجد سعادتها ، فالمرأة لا تكون صادقة إلا لمطالبها هى .. وليس لمن تعامله أياما كان ذلك الرجل .؟!

هكذا هيئ له أنه حل معادلة الأنثى المركبة . آه أيها القلب المعذب .. كفاك عذابا .. وفلسفة فارغة . اليوم تقوم بجولة عظيمة . الحياة الحب .. والحب الحياة .. أيها الرجال أحبوا أو موتوا . تمنى أن يعود بالزمان إلى أيام الشباب ليعيد رسم حياته من جديد . نعم ألا ليت الشباب يعود يوما .. يوما واحدا .. ليكون لك يا مدام كارمن . كان كلما تخيل نورة فى ثياب عرس بيضاء ، طمست عليها صورة كارمن عارية من خلف ستارة تسخر منه قائلة :

— متى تعرف الطريق أيها الحائر .؟!

أفاق على شذا ورد وزهر ، يلف فيلا السيدة كارمن .. تذكر حديقة قصر العمدة حيث نورة والوردة الحمراء .. ما أن استقرت قدماه فى ردهة البيت ، حتى أدرك — كما تذهب أشعة الشمس الندى من فوق الزهور

ــ أن أحلامه التى بناها فى الطريق قد تبخرت . فقد أقامت السيدة حفلا محدودا ، لبعض من تتعامل فى دائرتهم ، وكان هو ضيف الشرف . تساءل ساخرا : ما معنى ذلك الشرف الذى أمسى ضيفا له هذه الليلة .؟ كان يوجد بعض موظفى السفارة الأمريكية الذين أحس أنهم ليسوا رجال سياسة بقدر ما هم رجال مخابرات أو تجارة على الأقل . يوجد أيضا بعض موظفى شركات طيران سابنيا ــ الباسفيك ــ إير فرانس ، بعض رجال الاستيراد والتصدير ، بعض سيدات مرافقات لهم أو مدعوات من قبل صاحبة البيت . كان يحس أنها ذات فلسفة براجماتية ، لذلك لم يستبعد أن يكون بينها وبين كل واحد فى الحفل مصلحة خاصة . حين حاول أن يطبق الأمر على نفسه قال لا .. لا .. أنا حالة خاصة فى كل شىء ..؟!

البيت يزهو بأثاث فاخر وديكور ذى طابع أسبانى . ثمة ذوق راق فى كل بوصة من الأرض والحائط والسقف . يا إلٰهى إذا كان هذا بيت كارمن سوريانو ، فكيف كان قصر مارى أنطوانيت ملكة فرنسا .. أو كيف يكون قصر إليزابيث الثانية ملكة إنجلترا الآن ؟!. امتلأت الموائد بلحوم محمرة ومشوية وباردة ، وفاكهة طازجة ومعصورة . أما المشروبات فلا يعرف محمود لها اسما ولا يستطيع لها حصرا ، لقد كان أقصى طموحه زجاجة من بيرة ستلا .. أما اليوم .. اليوم .. خمر .. خمر .. وليكن ما يكون .!!

كان يتابع من بعيد الأحاديث الجادة والعابثة حول نزاعات الحدود فى أفريقيا وآسيا ، التقارب بين أمريكا والصين ، ارتفاع الأسعار فى العالم ،

أثر البترول على الاقتصاد العالمى ، السياحة أصبحت ظاهرة عالمية وأن الإنسان سوف يعرف قريبا بأنه « حيوان سائح » .

كانت السيدة كارمن توزع اهتماماتها بعدالة بين الجميع . أدركت أنه بعيد عن المشاركة فى الشراب والحديث ، فطلبت منه أن يرقص معها .

ــ آسف يا سيدتى .. لا أجيد .

ــ لا شىء مستحيل فى هذا العالم .. قم أيها الشاب العجوز .

انتزعته من كرسى غطس فيه ، بينما تكلف ابتسامة تغطى حيرته . أحس وهو ينقل ساقيه ببطء أن الكل ينظرون إليه ، يتندرون على خيبته الحارة ، فكان يحجل مثل حمامة وقعتْ فى شرك .

ــ أشكرك يا سيدتى .. على كل شىء .

ــ أشكرك أنا باسم الفلبين على زيارتك .. فأنت رائد السياحة العربية فى بلادنا .

ــ لن أنسى .. لن أنسى هذه الأيام .

ــ أتسمح لى بملاحظة .

أحكمت وضع يدها على كتفه ، وهى تتفرس وجهه الحزين .

ــ عشتَ طويلا فى الحياة .. لكنك ما زلت تتعامل معها كطائر حائر ..!

كلام هذه السيدة سكينٌ حاد يقطع أواصر ماضيه الضائع .

ــ إننى رجل شرقى متدين .. وهذا ...

ــ كن جنتلمان ، لا تقاطع امرأة تتحدث .

ــ آسف سيدتى .

ـــ أمثال هذه الأحكام الجوفاء كانت مفتاحا سحريا ، أذل الغرب بها الشرقَ طويلا حتى يستعبده .. بكل أسف صدقنا نحن الشرقيين الكثير منها ، وأخذنا نطبقها على أنها خصال فطرية نحاول أن نمحوها أحيانا فنثبتها أكثر ، ثم نتمسك بها فى بعض مواقف الخيبة فنصبح مثار سخرية .

ـــ ....

نظرت إليه ، مثل عصفور مطارد كان ..!!

ـــ حاول أن تنسى الماضى .. وانظر إلى الحاضر بثقة وأمل .

كان محمود يشعر أنه ضحية المرأة على كافة أدوارها فى الحياة . عذبه غياب أمه ، وقسوة عمته ، وضياع حبيبته ، فهل تقدر اليوم امرأة أخرى على أن تصلح ما أفسد الدهر فى نفسه .؟!

أهم ميزة فى هذه المرأة أنها سريعة الحركة بدرجة تسبق خواطر الفكر . جذبته بسرعة إلى أحد الأركان ، حيث تجلس سيدة غاية فى الأناقة ، أحس أنه يراها لأول مرة حين شاهد مفاتنها عن قرب ، كانت مثل القمر فى ليلة ظلماء ، أو قطعة آيس كريم فى صحراء قاحلة ـ أحس ضعفه وضعف اللغة عن وصف الجمال ..!!

ـــ صديقتى الآنسة أنيتا ـــ أكثر سيدات مانيلا أناقة ورشاقة ..ورقة (نظرتْ إليه مشجعةً ..!!) فوق هذا أكفأ موظفة فى طيران سابينا .
السيد محمود رجل أعمال مصرى .

ـــ تشرفنا يا سيدتى .

ـــ نسيت أن أقول إن بها دماء أسبانية ، وأظن هناك علاقة تاريخية بين العرب والأسبان .. ابتسمت ابتسامة ذات مغزى !!

أحس أنه خارج حدود الزمان والمكان . أنيتا ذات قامة هيفاء ، وجه باسم يوحي بالفرحة ، عينان زرقاوان ، كأنهما بحر من الحنان ، شفتان مثل الفراولة ، شعر مقصوص كأنه عرف مهرة أصيلة ، صدر فستانها البمبي ، يبرز جمال رقبة مرمرية . كل هذه الفتنة تستطيع أن تحملها بيدك وتطير إلى السماء ، فهي خفيفة الوزن والروح . يا سبحان الله ما هذه بشرا . راودته فكرة المقارنة بينها وبين إميلدا . هذا العالم ملىء بالمتناقضات . ترى كيف خلق اللهُ عالمَ النساء ، ذلك العالم العجيب ، فيه .. الحورية .. الغزال .. المهرة .. الشاة .. العنزة .. البقرة .. الجاموسة .. الحمارة .. الكلبة .. بل إنه لا يخلو من أمثال اللبؤة والخنزيرة . الليل كلما تقدم أحس أن جو مانيلا أكثر .. أكثر عذوبة . قال لأنيتا ، وهو يقدم كأسا :

— سعيد بمعرفتك يا آنسة .

— الحياة حلوة .

— نعم يا آنسة .

— هل تحب الحياة .؟

— بلا شك .

— كيف ؟

عاودته حيرة سرمدية .. لكنه حسم الموقف سريعا ، فقال وهو يتأمل جمالها :

— أحبها من غير تساؤل .. من غير فلسفة .. أحبها لأن فيها أمثالك .

— هذه مجاملة لطيفة ، لكن ...

— أرجوك .. لا أحب ما بعد لكن هذه — أريد حذفها من القاموس .. الجو جميل وأنت أجمل .

التأمل عبادة . من قال القراءة أساس المعرفة ، إن ليلة واحدة مع أنيتا الحلوة ، تعطيك حكمة تعدل كل ما كتب فلاسفة العالم .. وما سوف يكتبون .!!

— هذه آخر ليلة لى فى مانيلا ، كم أكون سعيدا لو أخذت ساعة واحدة من وقتك .. واحدة فقط .

قالت مبتسمة :

— يبدو أنك طماع ، سوف أشكوك إلى صديقتى كارمن .

قال جادا :

— كنت أريد أن أوقف تاريخ حياتى بعد هذه الساعة .!

— لكنى أريدك حيا ، سافر وعد ، وسوف أكون أول من يلقاك عندما تعود .

أحس كما آدم يخرج من الجنة يكون .. لكن آدم كان أفضل حالا ، لأنه خرج ومعه امرأته . نقله إحساس الإحباط — الذى لا يفارقه دوما — إلى عالم بعيد .. تصور نورة حبيبته ، قد صارت أرمل ، لها أبناء كثيرون ، وقفت بهم أمام مسجد الحسين . كانت تطلب صدقةً من أجل إطعام أبناء بدا عليهم الضعف ، بينما تسأل فى ذلة كان يملأ أذنيها ابتهال المصلين داخل المسجد ، ويفتح خلايا أنفها رائحة شواء كباب محلات الدهان . كان خارجا من المسجد فرآها على هذه الحالة ، عرفها بينما لم تكد تعرفه . من يصدق أن نورة الجميلة قد وصلت إلى هذا الحد . أخرج ورقة بخمسة

جنيهات وضعها فى يدها ومضى . لكنها سرعان ما عرفته .. نعم إنه هو .. الحبيب القديم . أسرعت نحوه وأعادت إليه نقوده ، ثم قالت وهى تعود دون أن تنظر إليه : لا لن آخذ منك شيئا .. يكفى أنك السبب .!!

هزَّ رأسه كأنما يطرد هذا الخاطر الغريب عن ذهنه المتعب .

قالت مدام كارمن وهى تودعه عند الباب :

ــ سعيدة كثيرا بمعرفتك يا سيد محمود ، لن أقول وداعا ، لكن إلى اللقاء .. إلى اللقاء يا عزيزى .

ــ أشكرك يا سيدتى العظيمة .. إلى اللقاء .

قبل يدها وانصرف .

السيارة تقطع الطريق إلى الفندق ، وهو غارق فى تأملاته بين نورة وأنيتا .. تمنى ليلة حب فإذا بها ليلة جمعتْ كل حياته .. رأى الأمل والألم .. الحب والحرمان .. الرغبة والعجز .. تمنى أن يدمر العالم وأن يعيد بناءه من جديد . إحساس بالمفارقة فى كل شىء كان يسيطر عليه . لا شىء يجعلنا عظماء سوى الألم والأمل ..!

قال لنفسه وهو يلقى على مانيلا النائمة نظرة أخيرة ، والفجر يتنفس من بعيد : مانيلا .. يا مانيلا ، أنت بلدة عجيبة وجميلة .. لكنى دخلتك جوعان .. وخرجت منك ، وأنا .. أنا جوعان ..!!(*) .

---

(١) فبراير ١٩٧٩ .

الفهرس

مؤلفات طه وادى الأدبية

		طبعة أولى	طبعة ثانية
١ ــ عمار يا مصر	(مجموعة)	١٩٨٠	١٩٩١
٢ ــ الدموع لا تمسح الأحزان	(مجموعة)	١٩٨٢	١٩٩١
٣ ــ الأفق البعيد	(رواية)	١٩٨٤	١٩٩١
٤ ــ حكاية الليل والطريق	(مجموعة)	١٩٨٥	١٩٩١
٥ ــ الممكن والمستحيل	(رواية)	١٩٨٧	١٩٩١
٦ ــ دائرة اللهب	(مجموعة)	١٩٩٠	١٩٩١
٧ ــ الليالى	(سيرة ذاتية)	١٩٩١	١٩٩١

* * *

رقم الإيداع ٨٤١٩ / ١٩٩١
الترقيم الدولى x - 0702 - 11 - 977